أمين الزاوي

الخُنُوع



رواية

El djazair éditions

الخُنوع

أمين الزاوي



الخنوع

رواية

ترجمة عبدالرحمن مزيان

El djazair
éditions

- الخنوع

رواية – أمين الزاوي – ترجمة عبد الرحمن مزيان

العنوان الأصلي للكتاب : LA SOUMISSION

الإيداع القانوني 2349 ـ 2008 ـ ر د م ك 8 ـ 7 ـ 9667 ـ 9961 ـ 978

- الطبعة الأولى 2008
- جميع الحقوق محفوظة
- عدد النسخ 1000 نسخة
- التدقيق اللغوي : صايل الكفيري
- لوحة الغلاف ميسون علم الدين
- الإخراج الفني والغلاف : مناف نفاع

- الناشر

El djazair éditions

13 RUE LES FRERES BOULAHDOUR
16000, ALGER, ALGERIE.
TEL/FAX : (++ 213) 21 74 45 44.

- التوزيع في أنحاء العالم :

النايا

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية – دمشق ص . ب : 2322

هاتف :5626576 ـ فاكس 5630559 (11 963+)/ جوال : 693 624 944 (963+)

البريد الإلكتروني : safi_nayaa@hotmail .com

كان يا ما كان

لا تسرف في الكلام ، فتهدر كلمتين بينما واحدة تكفي .

باسم الله ، القوي ، العادل ، القهار والغفور أبدأ حكايتي التي تسير على طرقات متعرجة في غابة قلبي العميقة ، قبل أن يأتي عليها الزمن المتوحش ويمحو النسيان التفاصيل .

أطلب من الله الجميل والذي يحب الجمال أن يزودني بليلة تطول مثل ألف ليلة وليلة ، حتى أستطيع فتح جرحي وأحكي لكم قصتي حتى النهاية قبل حلول النهار... لأن الذي يحكي في وضوح النهار يلد أبناء صلعاً . نتمنى من الله الرحيم أن يحفظنا وخلفنا المؤمنين أيضاً ، ويبقينا في عطفه إلى الأبد . نحن البذرة النبوية الخالصة .

أستطيع أن أحكي لكم ، أنا الوحيد في غمرة هذا الليل .

أعيش تحت عين أمي اليقظة ، عين لا تنام أبداً ، لا تحرس إلا عضوي الذكوري الصغير ، مخبأ منذ تسع سنوات وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً ، في باقة من القطن ، محاطاً بمنديل من حرير فارسي . أرفع بصري في أية لحظة فلا أجد إلا عين أمي ، المجردة واليقظة والمحدقة فيّ .

لقد كان ممنوعاً علي التبول في الخارج ، في الساحة المغبرة حيث يقضي كل الأطفال في مثل سني ، حاجاتهم وأعمالهم الشيطانية وفرحهم ، دون مضايقة ولا عقد .

في الأوقات النادرة والقصيرة التي سُمِحَ لي فيها بالخروج للعب مع الآخرين ، كنت أشعر بصوت أمي يدور مثل دوامة في رأسي : «لا تبل في الخارج لا تتعرَّ أمام أي شخص . وإذا كنت في حالة تستدعي التبول ، افعلها في القطن وفي الحرير ، في فستانك . »

في صورة أخواتي الخمس ، وحتى سن التاسعة ، وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً ، كنت ألبس فساتين مزهرة بالأخضر، الأصفر والأحمر ، كنت مولعاً بفساتيني الصغيرة المزهرة

كانت فساتيننا تقطع من ثوب واحد ، مشترى ومخاطٍ عند خياط يهودي ، هارون صادق .

لقد كان الخياط اليهودي بالنسبة إلى كل سكان الدوار شخصية استثنائية .

أولاً ، كان هو الذي يقرأ الرسائل المكتوبة بالفرنسية أو الإسبانية ، التي تصل إلى بعض رجال قبيلة أولاد أبي طالب : رسائل معاش المحاربين القدامى في الجبهة الفرنسية ، في إيطاليا ، في سوريا في تركيا وفي لبنان ؟ إشعارات الضرائب ، استدعاءات موجهة للشباب من أجل الخدمة العسكرية ... كان هو ، وهو فقط الذي يجيب عن كل البريد دون حتى أن يكلف نفسه عناء طلب المعلومات التكميلية من المعنيين ، كان هارون صادق خياطنا يعرف كل ما يتحرك ، كل ما ينبض في الدوار ، السكان ، الملكيات ، الأنعام ، الأشجار ...

خلف نافذة صغيرة زجاجية ، في دكانه الذي لا تزيد مساحته على اثني عشر متراً مربعاً ، كنت أراه مثبتاً على كرسي مسنده من سعف النخيل أو التبن ، أمام آلة خياطته سانجير . على يمينه طاولة بيضاوية الشكل منتصبة

علـى ثلاثـة أرجـل عاليـة يتربـع عليهـا سـجل مربـوط بسـختيان أحمـر ، حيـث يسجل ، بقلم مبري من قصب إيراني ، كل ما يحدث في الدوار : ولادات ، وفيات ، زواج ، ميراث ، طلاق ، أعياد دينية إسلامية ، يهودية ومسيحية اتفاقيات بيع وشراء الأراضي ، الخيل ، البقر ، الحمير ، البغال ، الماعز . . .

كان هارون صادق ، خياط الدوار يعرف جيداً خياطة فستاني المزهر ، غالباً هو الذي كان يحكي لأمي عن الأوقات القاسية التي منع فيها العثمانيون أجداده اليهود من ارتداء الملابس ذات الألوان الفاقعة ، إبان الاحتلال العثماني ، كان محكوماً على كل يهودي بأن يرتدي ملابس داكنة . . عديدة هي العائلات اليهودية التي اعتنقت المسيحية أو الإسلامية من أجل التخلص من ألبستها الداكنة وارتداء الملابس البيض ، الحمر ، الوردية أو الخضر . لقد كنت حزيناً وأنا أستمع إلى قصة الملابس بلا زهور ولا ألوان . فيما يخص أمي التي انزعجت من أعمال العثمانيين هذه ، لم تتوقف عن هز رأسها إشارة منها إلى التضامن والكآبة .

كان مثل أبي ، عارفاً مشهوراً بالخيل ، غالباً ما يستشار من ناس المنطقة في شراء ، بيع ، معرفة وتحديد جنس الخيول .

لكي يعطي نصيحة جيدة ، أو ليقنع محدثه لا يتردد هارون الصادق في قراءة كتبه المختصة . . يحفظ عن ظهر قلب بعض الأشعار وبعض النكات عن الخيل ، وقصائد أحداث غابرة بالعربية الفصحى ، بالفرنسية والإسبانية .

كان يضع في أحد الأدراج كتباً خاصة بجنس الخيول ، سروج الرجال والنساء ، حذوات الخيل ، أنواع القطن ونوعيات الأثواب ، آلات الخياطة ، صوراً فوتوغرافية للملكة إنجليزية مبتسمة إلى جانب روزنامة قديمة بثلاثة أعمدة تحدد

الأزمنة الهجرية الإسلامية واليهودية ، كان هارون صادق غالباً ما يحكي لنا قصة جميلة عن الخلق الإلهي للخيل كان يقرؤها في مخطوط قديم حول علم الفروسية : عن علي بن أبي طالب (ض) ابن عم رسول الله ﷺ أنه قال : قال الرسول ﷺ : "عندما أراد الله خلق الخيل ، قال لريح الجنوب : أريد أن أخرج منك مخلوقاً سيكون نصر عبادي ورعب أعدائي ، أجابت الريح ، سمعاً وطاعة ، أنت الله ، العالم ، وأخذ الله قبضة من الريح وخلق حصاناً أشقرَ متلهفاً ، وقال له : لقد خلقتك عربياً ، جبلتك من الريح وربطت السعادة بالعرق الذي يتدلى بين عينيك ، ستطير دون أجنحة . ستكون سيد كل الحيوانات الأخرى . جيد للكر . جيد للفر ، ستحمل فوق ظهرك رجالاً يثنون علي يعظمونني يسبحون لي . في كل مرة يقولون بعظمتي ، تقول بعظمتي . في كل مرة يعظمونني ، تعظمني ، وفي كل مرة يسبحون لي سبح لي ، ثم وسمه بعلامة العز والسعادة ، نجمة وسط الجبهة ثم انطلق الحصان في الفضاء" .

أبي ، الذي كان مفتوناً بعجائب الحياة ، يعلق « لاشيء عندي أغلى من النساء والخيل . »

هارون الصادق ، خياط دوارنا اليهودي ، بسنتمتراته الصغيرة المضافة كل سنة إلى ملابس السكان ، سراويل للأطفال ، معاطف أو جلاليب للرجال ، فساتين للنساء والصبيان ، يشعر بأنه هو الذي يرجع إليه تكبير قامات الأطفال وأكتاف الرجال ، إبراز نهود الشابات وقولبة أرداف النساء .

يميز هارون الصادق العائلات بقاماتها : أولاد رابح كانوا قبيلة ذات قامات طويلة ، كانوا يلقبون بأبناء الزرافة ، أولاد العربي كانوا عائلة ذات أجسام ضخمة بل سماناً ، أولاد (بو طالب) كانوا متوسطي القامات .

كان هارون الصادق مثل أي واحد من الدوار يحضر الدفن : كل جمعة ، يرافقه أبي ، كانا يقرآن معاً بعض السور القرآنية على مقابر الأجداد وعلى الموتى الجدد أيضا .

كان للمسلمين واليهود مقبرة مشتركة ، بمربعات منفصلة ، وكانوا يتقاسمون الأسماء نفسها : بن سوسان ، بن حمو ، بن سعدون ، شقرون ، بكري ، بن قرين ، فرحات ، بن هارون . . .

أبي أكبر مقرئ للقرآن والشعر لم تكن له الشجاعة لغسل الموتى هارون الصادق هو الذي كان يقوم بهذه المهمة الفظيعة والمشؤومة .

لقد كان لأبي قلب شاعر .

إنه هارون الصادق ، هو وحده الذي عرف كيف يقنع أبي ليرسلني إلى مدرسة الروم ، حيث أصبحت منذ سن الخامسة قادراً على قراءة روايات مفعمة بالتاريخ والحب ، بالموتى ، بالنساء العاريات ، بالملابس الداخلية . . .

مقصات هارون الصادق لم تكن موجهة لقص الأثواب فقط لكن إلى شيء آخر أكثر أهمية .

في هذا المساء خالاتي صبغن كفي بالحناء ، لم تتوقف أمي عن البكاء وهي تضمني إلى صدرها ، كنت أبكي معها دون أن أعرف لماذا ، أمضيت هذه الليلة بين ذراعيها ، الرأس بين ثدييها اللذين مازالا منتفخين ومنتصبين .

بينما تنبعث رائحة يديها الطيبة

وفي الصباح ، منذ الساعات الأولى كنت مرتدياً لأول مرة (قندورة) بيضاء وعلى رأسي طربوشٌ تركيٌّ أخضر ، لاحظت أن حديقة الدار الصغيرة قد اكتسحها الرجال والنساء تماما .

كانت فرقة فلكلورية بلباس موحد ألوانه براقة حمرٌ، خضرٌ، سودٌ، بيضٌ ترقص وتغني، لقد كنت مفتونا بالعازف الذي يعزف هذه الموسيقى الجميلة. نافخاً بقوة في قرن ثور ضخم. . على الأرض، كان تيسٌ منبوحٌ يحرك بين الفينة والأخرى قوائمه المربوطة بحبل من النايلون الأخضر في حالة ارتعادية، الأعضاء الخمسة عشر للفرقة يرقصون وهم يسيرون على دم النبيحة، في سطح الحوش، عجوز، بلباس أبيض ثلجي، برفقة شابتين يلوحن بمنديل أبيض وخمارين أخضرين. . فوق عتبة الباب يوجد إناء من الفخار مملوء بالماء، ألقي في الماء بسبع بيضات دجاج رومي مسلوقات

كان عمري تسع سنوات، وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً

فجأة صمت الموسيقيون والمغنّون. كان عمي رابح يحملني بين ذراعيه. أمي كانت تبكي، كانت تبكي منذ ثلاثة أيام وثلاث ليال، في رمشة عين، وجدت نفسي بين يدي هارون صادق خياط دوارنا. كالعادة. مقصاته تلمع بين أصابعه الشمعية البيضاء. . بحركة خاطفة قص قطعة من عضوي التناسلي، من برعمي، صرخت. . الموسيقي الذي كان ينفخ في قرن الثور عاود عزفه لم أعد أسمع شيئاً تقريباً، زغاريد وبكاء. بكاءات رفعن صراخهن الرامي في أغنية دينية، روتينية حزينة وحادة، أمي فقدت وعيها، تسابقت النساء إليها يرشن بماء الكولونيا رأسها وقفاها. ظننت أنها ماتت، فجأة فتحت إحدى عينيها.

العين التي لا تنام أبدا!

إلى يوم «المقصات»، لقد كنت محفوفاً بعين أمي بشكل دائم

العين التي لا تنام أبداً.

أخذ فستاني من الثوب نفسه الذي أخذت منه فساتين أخواتي الخمس اللائى لم يحررنني أبداً . كانت أمي تسمح لأخواتي بالخروج من المنزل كما يحلو لهن ، فيما يخصني كنت محروماً من أي خروج كيف ما كان . أمي كانت تقول لخالاتي وبنات خالاتي إني مريض وإن حالتي الصحية لا تسمح لي باللعب في الخارج ، لم يكن هذا صحيحاً أمي كانت تكذب .

لا يمكننا التسلق إلا إذا نزلنا إلى الأعماق

كان يوم استحمامي بالنسبة إلى أمي يوم كابوس. بداية لم أستحم إلا مرة واحدة في الشهر. ويكون ذلك في يوم الاثنين الأول من كل شهر قمري ويوم الاثنين هو يوم التسوق الأسبوعي، حيث الرجال والعجائز والشباب الذين أسماؤهم غير مسجلة في قائمة الهاربين من الخدمة العسكرية، ولا يبحث عنهم الدرك، يذهبون لشراء القهوة، الشاي، الصابون، الزيوت النباتية، بنزين، شمع، غاز سائل لمصابيح الإنارة...، أو لبيع القمح، الدواجن، أنعام، بيض، زيت الزيتون، فول... ولتبادل الأخبار.

منذ الصباح الباكر وجدت نفسي مسجوناً في غرفة الوالدين المقفلة جيداً في الزاوية اليمنى لهذه الغرفة المظلمة والرطبة والخالية من النوافذ، كانت أمي تسخن الماء في إناء من الألمنيوم أرجله الحديدية الثلاث صدئة تماماً، من وقت إلى آخر، ترمي فوق جمر الموقد القريب من رجلي حفنة من الهال، البانون، التينبول، القرفة، البهار الهندي، الكبابة، الزنجبيل، جوز الطيب، القويسة، وخصلة شعر، أظافر، أجنحة البعوض، حافر حمار، ذباباً هندياً يابساً... كانت رائحة قوية تؤلمني في الأنف. تسيل الدموع من العينين، كنت أبكي، لم أستطع تحمّل هذا الدخان، رائحة البخار هذه. عرتني وهي تنظر بإمعان إلى عضوي

الصغير الذي أخرج رأسه الكتكوتي من القطن والحرير ، كانت تتمتم ببعض الآيات القرآنية أو تراتيل وهي تمسح بيدها اليمنى النظيفة المغسولة سبع مرات على عضوي التناسلي وخصيتي ، وفي حالة من الذعر ، الغياب ، قالت بصوت مرتفع« هنا ترتاح بذرة نسبنا »

لم أفهم شيئاً .

كنت مسكوناً بإحساس معذب . أحسست بشيء في أمي يرعب . استكشفت نفسي بشغف . تصورتها مهيأة في أية لحظة لانتزاع عضوي التناسلي ورميه على الجمر الأحمر في الموقد . كنت أنتظر بفارغ الصبر عودة السكان من السوق ، هم وحدهم قادرون على تحريري من هذه الرائحة الجهنمية ومن هاتين العينين الأمومتين اللتين لا تتوقفان عن افتراس عضوي التناسلي الصغير بشغف .

«لماذا تتصرف هكذا ؟ » كنت أتساءل . .

عند نهاية الاستحمام ، كانت أمي تعيد بحذر وتدقيق عضوي التناسلي الصغير إلى قطنه الوردي ومنديله الحريري الفارسي في خفية ، وبعيداً عن أعين الشيطانات الخمس ، أخواتي . كانت تحضر لي وجبة خاصة : بيض الدجاج الرومي بالفلفل مقلي في زيت الزيتون الخالص ، حفنة من الجوز المشوي المملح ، قطعة من اللحم ، لحم تيس مجفف ومحفوظ في الشحم . بعد كل حصة من الاستحمام كانت تضع الحنة العنبرية في رجليَّ وكفيَّ .

كانت أخواتي يَغَرْنَ مني لرؤيتهن لي مدللاً من قبل أمي . بينما أغار منهن .

و أنا أراهنَّ حُرَّاتٍ بلا حراسة .

لقد استخلصت أنه لم يكن لأمي شيء مثل هذه الحراسة . تمنيت أن أفعل مثل الأطفال الآخرين ألعب بالغبار وأشعر بالتربة التي تحترق تحت شمس الصيف الحارة .

أحلم بإخراج عضوي الذكوري وأبول في الهواء الطلق بكل حرية ، كنت أتساءل :

« لماذا تتصرف هكذا معي ، أنا فقط ؟ » وهي تلبسني كفتاة ، لا بد وأنها تريد أن تخبئني وتجنبني الذهاب إلى الحرب ، لم تكن تريد أن أذهب يوماً ما للموت ، كانت تخاف أن تفقدني .

أمي كانت تكره الحروب ، كانت تعرف كل أسماء شباب المنطقة الفارين ، كانت تطعمهم وتخبئهم عن أعين الدرك .

أحب أمي .

كنت أشعر بأني مذنب تجاهها ، دون شك كنت سبب حزنها الكبير وبكائها المتواصل .

لم تسمح لأبي أبداً بأن يسجلني في سجلات دائرة الأحوال الشخصية ، لم أكن أعرف من أي جنس كنت .

مثل الكثيرين ، لقد تفاجأت يوم ختاني ووجدت اسمي المذكر يونس .

بعد حفل ختاني ، قضيت تسعة أشهر عند أخوالي ، رجعت بعدها إلى والديَّ ، في يوم مهول كان الجو خلاله مفعماً بنارٍ زرقاء . حين وصولي وجدت منزلنا مملوءً بالناس . لاحظت الدموع على عيني أبي الزرقاوين ، همست في أذنيَّ أختي خوخة أصغر أخواتي الخمس :

«جدي توفي » .

لم أكن أظن أبداً أن يموت جدي يوماً ما ، هو الهائم الأكبر بنكهة القهوة ، هاو لجمع أسطوانات أم كلثوم ، ساريزة الوهرانية . وخلال دقائق كان جسده في التراب . منعوني من رؤيته في كفنه ، لم يسمح لأي أحد بأن يلمسه ولا حتى أن يتخطى عتبة باب الغرفة التي كان ممدداً فيها على قطع الغرانيت الأملس المربعة . لقد كان هناك أناس غرباء ونصارى يلبسون الأبيض ، بقفازات وأقنعة على الأنف ، كانوا وحدهم فقط مكلفين ، بحمله ليدفن في المقبرة المشتركة (مسلمين - يهود) . باستثناء أبي وهارون الصادق خياط دوارنا لم يُسمحْ لأحد بأن يمشي وراء نعشه .

كانت حورية أصغر زوجات جدي حزينة ، هادئة ولا شأن لها ، بعينين دائما جميلتين كبيرتين وسوداوين كانت تبحث عن أبي في الحشد المزدحم الذي جمعته الحديقة الصغيرة .

لقد مات جدي! وسكان الدوار كانوا يتحدثون عن وباء ، الصينية ، الحمى الصينية التي ومنذ أيام معدودة لم تتوقف عن حصد سكان الضيعة الصغيرة .

ندبات

تقول إحدى الحكم :

في أقاصي الصبر هناك السماء .

أخواتي الخمس ، الخمس شيطانات ، هن أيضا لم يكن لهن اهتمام إلا بعضوي التناسلي الصغير الذي ينام لأول مرة بلا قطن ، ولا حرير مفقوداً بين الفخذين . مستوراً كما أرادت أمي ، في سروال من الترغال الأزرق ، أمام أخواتي ، اللائي كنت أتقاسم معهن فيما مضى الثوب نفسه لفساتيننا الست ، شعرت بخجل كبير ، كنت متضايقاً في الملابس الذكورية الجديدة وبالشعر المحلوق .

كان الجو حاراً ، يوم صيف قائض ، كنّ غاطسات في قيلولة . متوسطية ، ممددات في غرفة باردة من الحجارة والطين . فجأة ، وبلا تحذير ، الشيطانات الخمس هاجمنني وهن منفجرات بالضحك ، في رمشة عين جعلنني عارياً ، لكن وهن ناظرات «الشيء الغريب » بين فخذي ، عضوي التناسلي الصغير ، برعمي اللحمي أفزعهن ، وبسرعة اختنق ضحكهن ، بدأت الشيطانات يرتعدن من الخوف ، خوخة أصغرهن بكت . أنا أيضاً لم أتمالك دموعي ، أطلقت صرخة ، ومثل أخواتي خفت وأنا أكتشف بأني مختلف عنهن ، ترجتني الكبرى بألا أقول لأمي أي شيء .

كنت خجولاً أمام فتيات الدوار الأخريات ، برأس دون الضفائر الثلاث المفتولة بعناية ، التي كانت فيما مضى تسقط مرة على كتفي ، وأخرى على ظهري ، في الليل المؤرق ، كنت أغرس وجهي في الوسادة وأبكي فستاني وضفائري .

بمجرد أن يسرحنا الفقيه من المدرسة القرآنية ، يخرج الأطفال غير بعيد من المكان ودون خجل يخرجون« أشياءهم الغريبة » ، ويتبولون في الهواء الطلق متقاذفين البول فيما بينهم .

في البداية كنت أخاف إخراج «شيئي الغريب » . كنت أشعر بعين أمي ورائي ، العين التي لا تنام أبداً ،

اليوم بلتُ في الهواء الطلق!

اليوم بلتُ في الهواء!

كنت أبتلع كلماتي أمام خالتي من الخوف .

فاطنة ، في فمها لسان لاذع ، تسبني وتغتابني في ظهري .

امرأة "رجولية"فاجأتني وأنا أمارس الجنس مع دجاجتها ، التي ريشها مثل ورد الفول . خلصت الدجاجة بيد وبأخرى جذبت بقوة عضوي التناسلي المنتصب الذي كانت أوردته الزرقاء منتفخة وممدودة . صرخت . قرصت ردفي منفجرة بضحك عال ، قائلة لي «يا جنس الكتكوت المكسو بالزغب ، سأقص عضوك التناسلي إلى قطع إذا وجدتك ملتصقا بدجاجي . »

طأطأت الرأس

أخفيت آلامي

أقفلت أزرار سروالي ، وأسرعت متمتماً بكلمات سب بالكاد تسمع .

في الخـارج ، الأزرق الفظيع والسـاحق للفضـاء الشاسـع الـذي يتلاشـى في الفراغ ،

في العدم ، تنفث النار الزرقاء قيظاً مرعباً يجثم علـى سـكان هـذه الضيعة القابعة في أقصى العالم والمعلقة على جانب من جبل عار ومتوحش بعيد عن الله قريب من الخوف والمعاناة... الحرارة النفاثة ستبقي الناس في أماكنهم .

عضـباء الفقيـه مربوطة إلى جذع شـجرة التين ، كانت تفتنني وتثير فيَّ رغبة كبيرة... قامتي قصيرة لم تكن تسمح لي بالوصـول إلى الشـيء الساخن الذي يغريني فيها . . في ظل شـجرة تين أخرى كنت أترصـدها منتظراً أن تنام أرضاً « ملعونة هذه البهيمة لم ترد أن تتمدد»

كانت رائحـة الغبـار والأقاقيـات تحت الشـمس الحارقـة تنفخ صـدري . . شـخصان كانا يخيفاني في هذه القرية : خالتي والفقير .

خـالتي فاطنـة التحقـت بـأخواتي الخمـس المتمـددات علـى الأرض علـى طولهن ، كن من خلال ثرثرتهن وقهقهتهن يتبادلن أخبار الزواج وأسمـاء الشـباب المهـاجرين الـراجعين إلى بلـدهم للاحتفـال بأعراسـهم أو خطوبـاتهم كلـهن حسودات ، لقد كنت أنجـذب إلى ثرثرتهن الـتي يكون عـادة موضـوعها « الأجـزاء التناسـلية للإنـاث والـذكور . » أحـاديثهن كانـت تخـرجني مـن تحفظـي وتـدفعني للـركض في عز القيـظ وراء الـدجاجات ، الكلبات ، المعزات وحتـى وراء (عضـباء) الفقيـه الـتي يعتبرهـا سـكان القريـة كزوج شـرعية لهـذا الأخير الـذي يمتلـئ قلبـه بالأقوال الإلهية .

كنت أبحث عن ثقب يلج فيه عضوي التناسلي الممدود المنتصب المضطهد من طرف هذه الخالة الشريرة والفاجرة... لماذا تخاف خالتي دائما من الظلمة ؟

خلال الأيام الشتوية ، الصيفية أو الخريفية وقبل ساعة غروب الشمس العينان المتوحشتان ، المؤثرتان ، الباكيتان حيث ترقص الشعلات المحدقة في الشمس التي تميل نحو الغرب ، اللسان غارق في المرارة كانت تقول لأخواتي الخمس اللائي يحببن سماع حكاياتها مع زوجها المحكية بطريقة مسرحية « علي أن أذهب » .

لم يتوقفن عن تبادل الغمزات .

أمام أخواتي الخمس ، الشيطانات الخمس كانت خالتي تحكي مرحلة دامية من حياتها الخاصة والزوجية : «أقر ، أعترف ، بل أتقيأ كل ما كسته في القلب بين يدي زوجي . . . في ذراعيه ، لم أكن أفعل شيئاً بدقة ، كان كل العمل يرجع إليه . . تحضير المائدة ، المشروب ، المداعبة . . كان يلف لي سجائر من الحشيش ، يداعبني ، يجامعني ثلاث مرات في اليوم باستثناء أيام رمضان والجمعة . . لقد كنت يابسة مثل الخشب الأخضر وكان الجنس يسبب لي الدوران . . » .

الأفاعي الخمس المفعمات بالرغبة يتبادلن النظرات الخبيثة ، ينصتن بانتباه شديد لخالتي التي تشرح لهن شهية زوجها ، نوارة الأفعى الكبرى كانت تتمتم : « ستتبدد أحزانك . » الأفاعي الأربع الأخريات جميعهن يتمتمن : «إن شاء الله ... إن شاء الله . . »

عند غروب الشمس وكعادتها كانت تأخذ أفكارها وتنزوي في ركن مرتدية فستاناً بنياً بحواشي عاجيةٍ ، حزينةً ، مفكرةً ، جالسةً على سجادة مصنوعة من جلد الماعز ، تشرد بحرية عبر نافذة صغيرة ، نظرتها المجروحة على جبل معرى يشبه بهيمة خارقة وخرافية ، لم يكن هناك إلا فراغ سماء كبير بلا معنى ،

بـلا رائحـة ، مـنقط بأشـجار قاتمـة وكبيرة في صـمتها وخوفهـا . . وككـل غـروب شمس كانت تقص أظافرها لترميها في نار مجمر

و تعطرها .

شاة تنتظر جزارها .

العينان بلا مقاومة .

زوجوها في سن الثالثة عشرة . . متوحش هذا الليل الزفـافي . . حيواني .

. حيث أزال زوجها بكارتها في دقيقة وأربع عشـرة ثانية مسـجلاً أحسـن رقـم قياسي في المنطقة ولم يترك لأصدقائه الوقت ليدقوا بابه ، كان أسرع من الريح .

فزعت أختي الكبرى وهـي تسـتمع إلى خـالتي لم تتوقـف عن حك فرجهـا الصغير المبتل بقوة .

«بعضـهم قـال : مجـرد ثرثـار . وآخـرون قـالوا : مفعـم بالرجولـة . » ، لكن لم يفكر أحد في فاطنة ، كانت تتفرج ومغمى عليها .

كانت النسـوة يرقصـن وفي اليد منـديل أبيض مـن ثـوب كفـن ملطـخ بـدم بكارتها ، مغتبطات ، فرحـات وفي حـالـة مـن الـذعر ، كـن يزغـردن بقـوة ، في الغرفـة المجاورة ، كان الرجـال يقـرؤون آيـات قرآنيـة ، وفي غرفـة ثالثـة الشـباب المتزوجـون والعزاب يشربون الخمر في آنيات . . من الفخار أما جدتي كانت تبكي من الفـرح وهي تنظر بتعطش إلى المنديل الملطخ بدم البكارة .

منـذ تلـك الليلـة لم تسـتطع خـالتي النـوم في الظلمـة ، وزوجهـا لم يسـتطع مجامعتها إلا تحت حزمة قويـة مـن الضـوء ، أنهيـا حياتهمـا الكابوسـية بـالطلاق . كان زوجها أحسن دلاّل في القرية ، سـعيداً وفـخـوراً بصـوتـه الـحـاد ، قوياً وفريـداً في سـريرهما الزوجـي . . تحكـي خـالتي أن زوجهـا لـم يكـن يتوقـف عـن خلـط

كوابيسه بالتمارين الصوتية لحنجرته ، باستهلاكه كمية كبيرة من السكر الخالص ، يغط سبابته في وعاء السكر ويمصه . كانت له عين يقظة حيال أحباله الصوتية .

كانت تمارينه عبارة عن تكرار صوتي ، ليلي ، للكلام الذي يجب عليه قوله بصوت مرتفع في الأسواق الأسبوعية .

سبابة في وعاء العسل ، وبالثانية يسد أذنه اليسرى ويصيح :

« آه أنتم يا عباد الله ، يا من يسمعنا يسمعه الله هل من بينكم أحد رأى فرساً بيضاء مرقشة بالأسود ، حافراها الأماميان مصفحان . . شعرها لامع ؟ »

وهكذا عندما يريد الإعلان عن زفاف ، بقرة مسروقة ، أرض مبيعة ، أو عندما يخبر المؤمنين عن رؤية هلال شهر رمضان أو رؤية هلال عيد الفطر ، وأيضاً عندما يعلن عن الاحتفال برجوع حاج من الأماكن المقدسة ، أو ينشر أخبار الموت وأوقات الدفن .

كانت له تكهناته بالموت ، كل شيء كان مسجلاً وبدقة في دفتر صغير مخبأ تحت الوسادة : عمر بعضهم ، الحالة الصحية لبعضهم الآخر وأمام كل اسم يسجل اليوم المتوقع لموته ، قوائم موضوعة بدقة حيث الأسماء مسجلة في خط نسخ جميل ، مرتب حسب نظام زمني للموت .

أحيانا تحكي خالتي : « يستيقظ باكراً ، هائجاً ، مسرعاً ، كان يتوضأ بالماء البارد ، وقبل أن يسجد على سجادة السعف للصلاة يستدير نحوي ويرجني وأنا ما زلت في سريري قائلاً لي بصوتٍ ممتلئ بالفرح : «من الآن وحتى خمس دقائق سيأتي أحدهم ليخبرني بموت الحاج فلان طالباً مني نشر الخبر في السوق . » كنت أنام بعين واحدة مديرة له ظهري وتحت الغطاء أعلق :

« تتحدث عن الموت في الصباح الباكر بدم بارد ...... » يضاجعني بعجلة ، كان يفضل مضاجعتي بعد كل صلاة فجر ويسمعني التعبير التالي : «إنها خبزتنا السوداء المباحة التي نستخرجها من أعماق القبور . »

من أين سقطت هذه الخالة فاطنة ؟

كانت خالتي فاطنة في نظر عائلتنا (أولاد بوطالب) وكذلك في نظر كل قبيلة تدامت مثل عار دنس ، أو لعنة سقطت من سماء قاسية ، أو أنها بعثت مثل عقاب على ظهورنا من إله قاس وبلا رحمة .

في الضيعات الصغيرة المجاورة ، يقال إنها كانت ثمرة خطيئة اقترفها جدي في ليلة ... جدي الذي لا يحب إلا القهوة ، الخمر ، الخيل ، الشعر وجمع اسطوانات أم كلثوم وساريزة .

علامات الرمل

بعد خلاف بسبب قصيدة غزلية مطولة ، قصيدة من ألف ومائتي بيت نظمها جدي في أجمل امرأة في المنطقة ، امتطت جدتي ظهر بغل أبيض واختفت . حتى جدي لم يتأخر هو الآخر فامتطى ظهر فرسه يرفقه الفقيه الذي امتطى ظهر عضبائه الحبلى في المائة والسبعة والثلاثين يوماً فهو لا يخفي حبه الجسدي والعاطفي اتجاه هذه الدابة . . التي كان ينام معها في غرفة واحدة تستعمل نهاراً كقاعة للتدريس القرآني ، حيث لا توجد إلا عشر طاولات صغيرة كان كلام الله مسجلاً عليها .

كان للفقيه تجاه عضبائه رغبة الإشباع .

على عضبائه مسبحة من نوى المشمش ، كان الفقيه يتبع جدي وهو مضطربٌ وقلق يتمتم في خفية سوراً قرآنية ، تاركاً حبات المسبحة تنساب من يده الواحدة تلوى الأخرى .

أحس الفقيه بجفنيه ثقيلين وبأنه غير قادر على مقاومة تعبه ، وأخذ يغالب نعاساً عميقاً على ظهر بهيمته التي كانت مثله تموت من التعب .

لكي ينتقم من جدتي التي اختفت قرر جدي أن يتزوج بهذه المرأة التي يتغنى بها الجميع ، ويفوق جمالها الوصف ، امرأة كان يقول جدي إن الشمس لم

تضيء مثلها أبداً ، امرأة مثل عاصفة تعيش في القصائد والحكايات أكثر من الحياة الحقيقية .

جدّي كان يقسم برأس جدّه وبرأس كل الأسلاف المنحدرين من بذرة رسول الله الصلاة والسلام عليه وعلى آله ، أن يقضي الليلة الأولى بعد اختفاء جدتي بين ذراعي تلك المرأة الجميلة المخلوقة من الشُعرِ ، كان جدي يحب النساء الجميلات ، جدتي التي اختفت سالكة طريقاً غير معروف كانت جميلة ومهووسة ، تصرفاتها البرجوازية وهوسها الإقطاعي كانا يزعجان جدي .

أمام بعض أعضاء عائلة المرأة الجميلة ، الفقيه الناعس وجد في رأسه بعض آيات الفاتحة ، وبصوت مكسور ومضطرب ختم الفاتحة وعقد الزواج . هكذا أخذت المرأة الجميلة مكانها وراء جدي على ظهر الفرس . أما العضباء فقد وضع الفقيه على ظهرها تجهيزات العروس وكبشاً قرناه يشبهان قرني ثور .

منذ اليوم التالي لوصولها إلى الدار الكبيرة شغلت المرأة الجديدة غرفة وسرير جدتي المختفية .

كانت المرأة الجميلة تسمى حورية ، لكن جدي كان يفضل تسميتها مايا أو ماريا ويقول إنه اسم مقفى وشاعري .

عاش جدي أيامه مثل قصيدة .

ومنذ الأسبوع الأول ، حورية أو ماريا أغرمت بأبي ، شجاعة كبيرة بادية للعيان شعورها وضعها أمام الشاب الحساس الرومانسي ذي العضلات القوية ، الذي تتغير ألوان عينيه حسب الفصول وحسب قوة الريح ... إنها هبة الله الأكبر .

شقوق

بصوته الجميل كان أبي يجوِّد الآيات القرآنية من سورة يوسف ويتغنى بقصائد (ابن عربي)[1] الغزلية فيملأ الفراغ الموحش الذي ينخر الحديقة الصغيرة خلال قيلولات الصيف الطويلة ، محولاً الحرارة المرعبة إلى نسائم تأتي من الفردوس .

تطل حورية أومايا من نافذتها الملونة بالأخضر لسماع الصوت الجميل وخلال مدة خمسة وأربعين يوماً لم تكن لها القوة لتواجه اشتهاءها ورغباتها .

أبي مثل حبيبته مسكون بقراءة وعطر مايا ، ينسى نفسه ساعات وساعات تحت الشمس القاسية التي تشوي الجلد من وقت لآخر كان يبلل شعره بالماء البارد من قربة معلقة في جذع شجرة تين كبيرة . . بين يديه كتاب الأشواق لابن عربي وهو من الشعر الذي كتبه بوحي نيزام ، الحاجّة الفارسية الجملية التي التقاها الشاعر الصوفي الشيخ الأكبر في مكة . . بيدين مرتجفتين كان يحمل كتابه المفضل ، المخفى في جلد ماعز أحمر والذي تفيض صفحاته بالفرح والرغبة ، والإغواء والمحبة ، ثم التسامي نحو المطلق .

---

1 – ابن عربي : من كبار متصوفي الشرق ، عاش بين 1165-1241م

كان أبي يقرأ الشعر بإيقاع القراءة القرآنية فتطرب أذن أبيه نصف النائمة . هذا الأخير كان يهتم كثيراً بالاستماع إليه وكان يشجع ويسهر على هذا التقليد للقراءة بصوت مرتفع ، التي تطرد الحرارة ساعات القيلولة العجيبة غناءً ، حيث تفيض الرغبة وتصبح النساء عناقيد عنب حلو .

شيطان منتصف النهار .

أمام باب غرفتها المطلة على باحة الدار تنتصب تينة شديدة الخضرة ، والشيطانات الخمس بدموع نقية يتابعن الصوت الواضح لأب مشوش بجمال زوجة أبيه الساطع .

حورية أو ماريا ، مايا أو حورية ، واضعة مرفقيها على النافذة ، ممسكة في يدها بمروحة من التبن أو السعف ، تحرك رأسها المملوء بطيش الصبا ،

وتتابع القراءة خطوة خطوة . . كان الإيقاع يصعد إلى سماء البرودة حسب تصاعد حرارة الظهيرة ، حسب صوت شخير الجد ، وخاصة ، حسب رقة ، ورشاقة وعذوبة ما تلبسه حورية أو مايا!

من نافذتها ، لم تتوقف حورية عن القيام بما يلفت انتباهه إليها ، مرة بمنديلها المصنوع في الصين ، مرة بغمزات من عينيها السوداوين الكبيرتين ، مرة بشفتيها الحمراوين الفائضتين عن فمها المغري ، لكن أبي كان مسكوناً بالخوف والرهبة ، من أيام الشتاء القادم . .

ومع نهاية شهر أيلول يعلن هذا الفصل الملعون عن قدومه دفعة واحدة بسقوط مطر غزير بلون التراب يجبر أبي على التوقف عن مواصلة قراءاته .

عندما يسمع جدي صوت قطرات هذا المطر المبكر المسمى غسالات النوادر ، على سطوح من الطين الأحمر يفرش عليها الناس حصادهم ويعالج

بعضـهم فوقهـا محصـولهم مـن الحشـيش ، كـان يخـرج بندقيـة صـيد ، تركيـة الصـنع ، ليطلـق منـها سـبع طلقـات معلنـاً نهايـة القيلـولات ، وهكـذا تبـدأ الأيـام القصيرة .

وما أن يسمع والدي طلقات البارود السبع الملعونة ، حتى يطوي مصـحفه أو كتابه الشـعري ، والـدموع تنـهمر نهـراً مـن عينيـه ، يبقـي علـى أذنيه مغلقـتين بإصـبعيه ويبكـي بصـوت مرتفـع ، لم يكـن يريـد سمـاع هـذه العلامـة الشـيطانية المعلنة عن نهاية الشعر والقيلولات الحميمة .

بعـد انقطـاع القـراءات القرآنيـة والشـعرية ، لـزم أبـي الصـوم سـبع ليـالٍ ، وسبعة أيام .

سبعة أيام وسبع ليالٍ يتناول فيها خبزاً يابساً من الشعير الأسود والماء .

مكسـوراً ، حزينـاً ، انـزوى في غرفتـه لا يقـرأ ولا يعيـد إلا قـراءة القـرآن ، كتاب الله ، تاركاً لحيتـه تطول ، ولا يراقـب إلا بـاب حوريـة أو مايـا ، النافـذة المطلـة علـى الحديقـة الصـغيرة سـتبقى مغلقـة إلى الصـيف القـادم ، كـان يتمـتم بتنهيـدة عميقة صلاة المؤمن المستقيم : « ما يريده الله ، يجب أن يكون حسنا . »

هذا الصباح كان قلبي يخفق بقوة ، مرة أخـرى ، لاحظت أن دارنـا مكتظـة بالنساء والرجال ، بطبع كئيب كانت أمي تبكي وهـي تنتف شـعرها بقوة مثـل كـل النسـاء الأخريـات ، كـان هنـاك حتـى البكـاءات اللائـي يقلـن أو يغنـين الأغنيـة الـتي احتفظت بها مدفونـة حيـة في أذنـي منـذ يـوم ختـاني . أخـذتني خـالتي في ذراعيهـا وكانت هـي أيضـاً تنتحب .

في هـذا الصـباح ، الصـينية ، الحمـى الصـينية أو الطـاعون ، قـد عصـفت باثنتين من أخواتي الخمس . لقد وجدتا هامدتين في سريريهما .

خوخا ، الصغرى ، الأجمل كانت ما تزال حية بأم عيني رأيتها بين يدي أبي وهي تنظر إلي كانت أمي تصرخ بقوة ، وهي ترجو خالتي أن تقودني إلى الحقل في القرية المركزية ، عند أخوالي .

غادرت دارنا على ظهر بغل مسن ، كان الجو حاراً ، كنت أشعر بجسد خالتي الرهيف الملتصق بي ، التصقت بقوة ، مرتجفاً من الحمى أو الخوف ، لقد خفت أن تموت على ظهر البغل قبل أن تصل إلى القرية المركزية .

عند أخوالي ، خاف الأطفال مني .

الكل ، الكبار مثل الصغار كانوا ينتظرون أن يجدوني في صباح ما ، كتلة هامدة ، كنت أقضي الليالي وحيداً في غرفة منفصلة ، بعيدة عن تلك التي ينام فيها الأطفال الآخرون .

انتظرت موتي ، تخيلته على شكل جثة مشعرة الفكين متورمين بقوة ، في مدرسة البخاري حيث سجلني خالي ، وضعتني المعلمة ، السيدة كاستيلا ، امرأة شابة وجميلة من أصل إسباني وحيداً .

و حيدا في الطاولة الأخيرة في آخر الحجرة ، كان التلاميذ ينظرون إلي بحذر وخوف ، في اليوم التالي عدد من آباء التلاميذ احتفظوا بأبنائهم في المنزل خافوا من أن تنتقل إليهم العدوة لا أحد كان يتحدث معي ، حتى المعلمة لم توجه إلي الكلام ولم تطرح علي الأسئلة ، ومن المقعد الأخير في آخر الحجرة ، كنت أشم رائحة عطرها . . وبدأت أهوى تلك الرائحة .

الجميع في المدرسة ، بل في كل القرية كان ينتظر موتي ، كنت أمثل لهم عبئاً ثقيلاً .

لم يتوقف الحديث عني ككائن غريب ، في البيوت ، في المدرسة ، وفي مقهى القرية الوحيد . لم أكن أتحدث إلى أحد ، بل لم أجد أحدا يوجه إلي كلمة .

لقد أصبحت مساويا للشيطان .

حين رجوعي من المدرسة وكالعادة كنت أجد فوق الطاولة المنخفضة قطعتين من خبز الشعير الأسود وبطاطس مطبوخة وقليلاً من الملح ، حبة من الطماطم النيئة وكأساً مملوءة بالماء ، لاحظت ألا أحد في المنزل باستطاعته غسل أو لمس بطانيتي . .

وأغطية سريري تتسخ يوماً بعد يوم ، نتنت برائحة الرطوبة المخمرة والخانقة .

مثل الجميع في القرية ، تيقنت من أني سأجد نفسي ميتاً في صباح ما ، صباح لن يكون بعيداً ، هكذا كنت أتصور ، الآباء يأخذون من جديد أبناءهم إلى المدرسة لكي يلتقوا معلمتهم كاستيلا الجميلة والمعطرة .

لن أنسى أبداً هذا اليوم الذي جاءت فيه ابنة خالتي الصغرى لرؤيتي ، في غرفتي بأذنيها الصغيرتين سمعتني وأنا أحفظ درسي : أستظهر قصيدة جميلة عن الربيع المملوء بالعصافير ، بالفراشات ، بالروائح الزكية ، بالموسيقى والزهور .

الصغيرة تسمى دوجة ولعبنا طويلاً معاً عشية طويلة وجميلة ، واستمعت إلي طويلاً إذ غنيت لها وأعدت أنشودة الربيع ، لكن فجأة أمها التي كان بطنها منتفخاً مذعورة مثل سقوط ماء رمادية قاسية ، دخلت إلى الغرفة جاذبة دوجة من شعرها صارخة : « هل تريدين أن تموتي أم تريدي قتلنا ؟ »

سمعت بكاء وصراخ دوجة . . بكيت معها . . ومنذئذ قررت ألا أموت . .

لن أموت .

سأستمر .

مرت ثمانية أشهر والموت لم يأتني .

ذات يوم أدركت أني نسيت الموت بل هو الذي نسيني ، لقد تناسينا بعضنا بعضاً .

تساءلت كيف ، وذات مرة استطعت أن أجد نفسي محاطاً بالتلاميذ وكاستيلا الجميلة دون خوف ، كانت يدها البيضاء بياض الحليب تمسح شعري وأعطتني كتب خرافات وقصصاً للقراءة ، بعد قراءة كل خرافة أو قصة كانت تهديني قطعة من الشوكولاتة كاملة!

كاستيلا المعلمة الجميلة المعطرة دائما ، غيرت مكاني ولم أعد في المقعد الأخير ، أُخْرِجْتُ من العتمة والنسيان ، لقد نسيني الموت .

كنت أهوى عطر معلمتي كاستيلا .

في البيت ، دوجة كانت تنام إلى جانبي تحت الغطاء أو البطانة التي نتقاسمها .

لم أكن أتردد في اللعب كل ليلة بفرجها الصغير المدور والمبتل الذي كانت شفتاه لحيمة . كنت آكل في الصحن نفسه وفي الطاولة نفسها مع أخوالي ، لقد ذهب الخوف شيئاً فشيئاً وأصبحت واحداً منهم .

في غياب الخوف كم كان سكان القرية المركزية طيبين!

في هذا الصباح كانت لي رغبة في رؤية أمي عشيقة أبي ، أخواتي وخالتي فاطنة .

كانت العطل الكبيرة على الأبواب .

كنت أحب دوجة التي تشبه كثيراً أختي خوخة ، لقد كنت متيقناً من أن خوخة كانت حتى الساعة التي غادرت فيها البيت الأبوي ما تزال على قيد الحياة .

كنت أتصور خوخة مثل دوجة لا تحب أن تموت .

في هذا اليوم جعلتني خالتي ليلى أستحم بين يديها بصوتها ، بقدها ، برجليها ، بشعرها المدور البربري تشبه أمي كثيراً . . غسلت شعري ، الأذنين وقلمت أظافري ، بصوت عذب تمتمت في أذني : « يجب أن تقول لأمك أننا اعتنينا بك جيدا . » لم أجب .

كنت أحاول ألا أتذكر الأيام بل الأشهر الصعبة التي قضيتها وحيداً ، محبوساً في الغرفة الملعونة المستعملة عادة كإسطبل لأبقارهم .

لقد خفت ألا أرجع إلى والدي ، كنت أتصور أن الجميع قد مات ، أخواتي الخمس ، أمي ، خالتي ، أبي وزوجة أبيه التي يحبها إلى حد الجنون .

أبي بمصحفه ودواوين شعر الغزل وكتب لسير الرسل والمبشرين ، لن يموت أبداً . إنه ُجعِلَ من أجل الحياة والأعياد ، السفر ، النساء ، الدموع ، الخيل ، الفستق والولائم .

هذا اليوم قرر خالي أن يصحبني إلى السوق الأسبوعي ، حيث أعطى لوالدي موعداً ، قلبي كان يخفق بقوة ، خوف الموت بدأ يتسلط علي من جديد .

كانت دوجة التي تشبه خوخة تبكيني .

كنت أحمل بين ذراعي في كيس من الحلفاء كتب الخرافات وحكايات الحب والحرب التي أهدتها إلي كاستيلا الجميلة .

في السوق عند لقاء أبي لم يكن هو أبي ، وجدته نحيفاً دون ابتسامة ، دون قامة منتصبة باللامبالاة كبيرة ، قبلني حط نظرته الباردة علي ، لا توحي لا بالفرح ولا باللذة . وكان صامتاً لقد نسي حتى أن يقول لخالي شكراً .

هوة قد حفرت!

ذهب عمي ، سقطت دموعي ، كنت أفكر في دوجة .

لم يتغير عندنا شيء ، البيت مازال في مكانه ، موتى الصينية طواهم النسيان جميعاً في قبورهم المشتركة .

دامت أمي .

الأمهات لن يمتن وهي تراني حياً ذرفت الدموع بغزارة ، حسبتني ميتاً منذ أن بعثت ، لم تكن لأمي الشجاعة لأن تسأل عن أخباري كانت دائماً تخاف أن تفقدني ، أن أؤخذ بالصينية أو بحرب شرسة .

« يونس . يونس! » لأول مرة وبنبرة بالكاد تسمع ، أمي نطقت باسمي المذكر .

خوخة الوحيدة من بين الخمسة التي رفضت الموت ، هي مثل دوجة ، كانت تلمع من الفرح ، مجنونة ، لا تحب الموت ، لقد تغيرت كثيراً ، أصبحت كبيرة وجميلة ، جوهرة حقيقية ، لم يبق شيء من خوخة هذه التي تركتها في ذراعي والدي يوم وفاة أخواتي .

خوخة غادرة خوخة .

لقد فقدت خالتي فاطنة صوابها ، لم تعرفني ، منذ الفجر تصعد فوق سطح منزلنا الكبير هناك ، تجلس على سجادة ماعز بشعر طويل كثيف ، كانت تقضي أيامها تتأمل الشمس ، تشرب قهوتها ، فنجاناً ، فنجاناً ، مدخنة الحشيش ملفوفاً في ورق الجريدة ، سجارةً ، سجارةً .

أبي كعادته ، كان يقرأ بصوت مرتفع : مرة آيات من سورة النساء ، ومرة مقاطع من السيرة ، سيرة الرسول «ص» ، مرة يتعاطى الصمت ، يحتسي شرابه المفضل .

هارون الصادق ، دكانه المهجور ، ذهب دون أثر في ليلةِ أرقٍ طويل .

رجعت ، مثلما في حلم ، القلب مثلوم .

شيء ما يسكن أوردتي : دوخة . ترددت في أن أسأل أبي مثل أمي عن أخبار حورية ، مايا أو ماريا هي الأخرى لم تكن هنا .

ذهب العطر .

أعدت كلماتي إلى لساني بصمت ، سكنت نعش الرياح .

لاتهدر كلمتين ، إذا كانت واحدة تكفي .

يتحدث الناس كثيراً عندما تكون الأيام طويلة .

أحكي لنفسي ، أحكي ما لم تَرَهُ عين ، ولا سمعته أذن ، أستطيع أن أحكي لكم : إنه الليل هنا ينام .

هاهي هوة قد حفرت!

لا شيء يوجد دون حكاية : صور تعكس من مرايا إلى مرايا ، في تناغم جنون مضاعف ومشقق ، إن الحكايات هي مصدر آلامنا وألحاننا .

لا شيء سوى صحراء زمن قاحل منغمس في فحيح السنين .

مساء هذا الثلاثاء ، أو الجمعة لا يهم! كنت أكره أيام الجمعة! في هذا اليوم كان للزمن الذي ينهش بكل أسنانه جسدي .

يقيد خطواتي ويجعل خفق الحياة خافتاً مذاق المشمش ، المشمش! لقد كنت وحدي . مأخوذاً بين شراسة المرأة التي ترعاني في الصباح في الأيام العمياء والقاسية ، والليل الذي يحصدني في سرير أعمى وبارد .

كانت تكرر لي دائماً .

ستموت وحدك تائهاً . منعزلاً ومنسياً .

حينها أدركت أن لي رغبة بأن أستحم .... لاشيء في حشد القبيلة .

قرية مهجورة مسكونة من قبل أربعة : أبي ، أمي ، خالتي ، خوخة وأنا سجين ، ليحفظ الله أختي في وحدتها .

كيف قررت مغادرة القرية وأيضا البيت الأبوي حيث ولدت ؟ لماذا قررت أن أذهب ؟

قال أبي إني كنت عاشقاً مجنوناً لأختي خوخة ، أبي الحاج (رحيم) كان مجوِّداً كبيراً ومشهوراً للقرآن

-غادر ، الأمكنة وبسرعة قبل أن ترتكب معصية كبيرة مع هذه الخوخة ، أختك . . انصرف .

كنت أحب خوخة ، لم يكن بمقدوري مغادرتها دون ذلك الإحساس الذي يسلب مني روحي ، كنت دائماً معجباً بما تقول أمي .

-لو كان الله يسمح بالزواج من الأخوات فلن تتزوج إلا بهن .

أمٌ عفيفة!

كان أبي مثلي يهوى أختي ، ابنته ، كان ينظر إليها بعين ذئب

نعمل على تنشئة أرانبنا الصغيرة لتنتهي بها في أسرة الآخرين الغرباء .

أبي ، عين الذئب ، كان يقرأ في مجلد كبير ، أوراقه كانت صفراً لم أتصور أبداً أن كتاباً من هذا النوع ، مكتوباً بالعربية . بإمكانه أن يذكر شيئاً محرماً وفاحشاً : «كان الخوارج يقبلون الزواج بين الأجداد والأحفاد وبين الأعمام وبنات الإخوة . أورد لنا ابن حزم بأن الملك الزاوي بن زيزي البربري كان له أكثر من ألف امرأة كلهن منحدرات من إخوانه . »

دون شك ، كانت أختي جميلة ، جميلة مثل فراشة ، جميلة حتى الكفر .

كان أبي يقول عن خوخة إنها روح حورية ، مايا أو ماريا زوجة أبيه . واحد من بيننا نحن الثلاثة أو نحن الأربعة في يوم ما سينتهي في المستشفى ، أو يعزل في مصحة نفسية أو في سجن .

لقد أعجبت بكتب التاريخ والجغرافية التي أهدتها لي جميلتي كاستيلا ، حلمت بأن أذهب إلى حدود الأرض ، انطلق لألمس السماء الزرقاء .

لم يتوقف أبي عن حكاية تاريخه المفضل كل مساء ، تاريخ النبي سيدنا إبراهيم عليه السلام . يروي أبي أن هذا الأخير قرر بعد حلم أو كابوس أن يضحي بابنه ، إسحق أو إسماعيل لا يهم . اليهود والمسلمون في خلاف حتى على الموتى .

بعينيه الزرقاوين ، بنظرة متوحشة وحادة ، كان أبي يتأمل ملياً رقبتي ، وهو يشرح وقائع تاريخه الغريب .

رقبة ناضجة سكين مسنون جيداً!

كان يروي قصة إبراهيم وابنه ، إسحق أو إسماعيل ، أو أي أحد وهو يشرب شايه بالنعناع وينشد عن ظهر قلب استشهادات طويلة ، آيات قرآنية موقّعة أو مجوّدة .

كانت أختي خوخة هادئة ، مرتخية . مهزوزة بقصة التضحية السائجة والمرعبة من وقت إلى آخر كانت تلقي علي نظرتها ، كما لو أنها تبحث عن ملجأ ، لقد خافت . صوت أبي المرتفع ، ونظرته جعلتها ترتعد ، بوجه قاتم ، بتقاسيم سوداء غامضة وغير مقروءة .

كنت أرتعد . كان ظهري يقشعر .

كان أبي ينشد شعره ويحك بقوة عضوه التناسلي ، بيد مخبأة تحت بطانية من قطن إسبانية ، مزركشة بصورة فهد أفريقي .

صمت مسكون بموسيقى جنائزية .

منذ شهر ، وبسرية بدأت أقرأ روايات هنري ميلر ونجيب محفوظ وأيضاً حكايات بعض الرسل : يوسف ، موزا والنائمين السبعة ، كل ما كنت أبحث عنه الخطايا الكبيرة المشتتة على الصفحات ، في الجمل في الكتب المقدسة ، بين الكلمات المملوءة بالوقاحة ... كنت سعيداً عندما أعثر على فضيحة جنسية .

كنت أتمنى أن أحكي لأختي كل الحكايات الجميلة ، الحماقات ، الخطايا المكتوبة في الكتب المقدسة ، لكني غالباً ما كنت أشعر بحاجز في الحنجرة . . كانت الكلمات ترفض أن تخرج .

أصبحت خوخة مسكونة بقصة التضحية .

قال أبي لأمي ، وهو يحذرها ، من أن العلاقة ، بيني وبين أختي تسارعت بشدة .

أمي ، بشعرها الملون بالحناء الأحمر المذهب ، وبعينيها المكسورتين . كانت مرتعاً لحزن عميق . وتتمتم بالدعاء :

–ليحفظنا الله .

ارتعاش

ليس لأرضنا إلا شمس واحدة . في هذا الصباح ، فاجأني أبي وأنا بصدد القراءة لهنري ميلر ، جُنَّ بوجود مثل هذه الشيطنة في بيتنا الكبير ، كتاب رومي في منزل لا يوجد فيه إلا أربع نسخ من القرآن ، وبلا أي أسف ، كان قد رمى بالكتاب في نار الكانون متمتماً من الآيات القرآنية ، ودون شك يكون قد لا حظ

أني عندما كنت أقرأ الصفحات الجنسية المملوءة بالفرح الشيطاني ، أن برعمي ، المفصل جيداً من قبل خياط الدوار ، هارون الصادق .

قال أبي ، أه من الروم .

مأخوذا بخوف أزرق ، خبأت انسياب سائل أصفر ، أملس ومطاطي كان يؤلمني ، ألم حاد صعد إلى رأسي . . إنها حمى الرعدة .

خوخة وهي تمس رجلي كانت أيضاً خائفة ، قالت لي مرتعدة : إنها اللعنة التي تخرج من كتب الروم هذا ما لا أستطيع أن أقر به ، اللعنة! اللعنة! في الليل ، كنت أسير على أصابع رجلي لأرى جسد خوخة ، تحت ملابس شفافة : شذا ، رشيقة عذبة ، جسد حوري ، جمال خارق دوجة أخرى أو كاستيلا ؟

خوخة هيئة نومها العميق ، جعلت نار روحي تتقد في عيني . كانت ممددة بجلالة في السرير ، كبيرة ، جميلة حالمة بحدود الخطيئة والاختلال .

في وسط حوش الحديقة الصغيرة ، كنت أقوم وأسند ظهري إلى الحائط ، وأتابع صوت غطيط خوخة ، خفت أن تفقد نفسها ، أن تموت .

لماذا أفكر في الموت المبكر الذي سيأخذ أختي ؟

واقفاً ، فوق رأسي مثل جبل ، كان أبي يحمل حزاماً يلوح به في يده مهدداً ، فمه كان يقذف زبداً أبيض ، أبكي مرتعداً ، كانت عيناه مليئتان بنظرة حاقدة تخيفني ، كنت أرغب في أن أبول في سروالي ، كان برعمي يؤلمني ، كان يحرقني .

في هذه الليلة ، قررت أن أحكي لخوخة كل القصص الوقحة المكتوبة في كتاب هذا الرومي هنري ميلر لكن ظهور أبي قد غرس حسكة في حلقي .

خفت أن أحتفظ وحدي بكل لعنات كتب الروم وكتب القديسين .

في صغري ، كنت أتحمس للقصص التي تبكي أو تحدث المسرة وأكره الخرافات التي لأبطالها بنية جسدية قوية ، عنيفين ، قتلة وحارقين .

لقد ورثت هذه العاطفة من أمي التي كانت الدموع دائمة في عينيها . هكذا تتأنق كثيراً في ملابسها التي يغلب فيها الأصفر الكناري ، لون الغيرة .

كنت أعشق خوخة ، كنت مفتوناً بتقاسيمها المنسجمة ، بهيئتها الجنونية ، نبيلة وهادئة ، التي لا تتوقف عن ملء الأمكنة حولي حناناً ، برودة منعشة وتواطؤ ، دوجة أخرى تحب الرقص . . تموجات جسدها المخطوف بالموسيقى ، أمام مرآة كبيرة مشققة في الجوانب كانت تحول ساعات قيظ الصيف المتوسطي إلى عذوبة جسد مائي .

كان صمت خوخة المتفجر شريط أحلام مضيئة ، وطيوراً خرافية بألف منقار وألف لون . . أنظر إليها راقصة ، غارقة في دخانها ونارها ، كان قلبي دائماً منقبضاً ، كنت أقول : هذا الجسد الرقيق ، الأهيف ، المملوء بالحياة والفتنة ، مهددٌ بالموت .

مسكوناً بهذا التمسك ، كنت أختبئ وحيدا في المراحيض ، لأبكي خوخة ، وهي لا تزال حية!

كنت أتأمل من فوق رأسها ، سماء فريدة ، ليست زرقاء ، ليست معتمة ، ليست مريخية . . لم يفكر أبي أبدا في أن يكسر مرآة خوخة ، هو أيضاً كان مفتوناً . . مبهوراً برقصها . . لقد فاجأته خمس مرات وهو بصدد قراءة ، أو يتظاهر بقراءة كتبه تقريباً بصوت مرتفع ، كيف يتابع موج طيات جسد خوخة ورائحتها النارية . كان يقرأ حسب إيقاع الرقص . . . حسب الحرارة التي تفرزها الراقصة الصغيرة حورية ، مايا أو ماريا ؟

كانت عينا أبي تغيران لونهما في كل لحظة ، والسماء بدورها كانت تغير جلدها .

أمي كانت تلاحظ المكانة التي تحتلها خوخة في قلبينا أنا وأبي وتحترق بغيظ مسبوغ بالغيرة ، وانتهت بفقدانها للعقل والتوازن ولم تعد تشعر بالأرض تحت رجليها .

كنت أفكر في عضوي الصغير ، قديماً كان مخبأ في قطن وردي ، ملفوفاً في منديل من حرير فارسي ، محاطاً بعيني أمي اليقظة .

أم عفيفة في الصباح فاجأتها في سريري عارية تماماً ، كانت تبكي وبكيت معها حاولت أن أغطيها بغطاء السرير المملوء ببقع كبيرة من المني ، التصقت بي ، لقد استيقظت وفي هذيان بدأت تتحدث إلي عن هارون الصادق ، اكتشفت لأول مرة حبها لهذا الخياط اليهودي ، حكت لي عن اليوم الأخير لرجلها في القرية : « قال لي هارون إنه منذ 30 تشرين الأول 1940 ماريشال فرنسا رئيس الدولة الفرنسية ، وقع على قانون يبطل القانون الذي يعترف باليهود كمواطنين فرنسيين . أحببت هارون ، إنهم في أعين الروم مثلنا ، لقد قبلني ، ومنذئذ فقدنا أثره . لقد أحسست بشيء في صوته : قليل من الملح أو من الدمع» .

لقد كانت غرفة خوخة مضاءة كنت أسمع من سريري صوتها الساخن العسلي ، كانت تغني مقاماً أندلسياً ، أبي ، هو أيضا كانت أذنه ، ألف أذن معلقة بهذا الصوت المدهش .

لقد كانت عاشقة لصوتها الجميل .

فجأة ، انطفأ ذلك الصوت السحري ، والغرفة ذات الضوء الوردي .

غطست في ظلمة مرعبة ، هيأة أختي المثيرة صارت في السماء الشاسع والرحيم ، لماذا كانت هذه الدروب مملوءة بالرعب والجنون ؟

خوخة عزيزتي : « لينساك الموت . »

القيظ الجليدي

«ذات يوم كانت توجد جزيرة وراء البحار السبعة ووراء السموات السبع وفي هذه الجزيرة ولد الإنسان دون أب ولا أم . . وشجر التوت يثمر نساء عوض عناقيد العنب . . »

كان أبي راوياً جيداً لقصص الحب المحرقة، كان يكره الصلوات على الموت وطقوس الدفن . . هارون الصادق انطلق باتجاه المجهول تاركاً أبي في وجه الخوف ليجد نفسه مجبراً على غسل الموتى .

هذا المساء لم تكن لأبي لذة أن يبكي لكن « أنصتوا . . كلّموا الذي لا يتكلم »

و حدق في ، وكان شيء في نفسه يتوهج . . كان شيء يجثم بقوة على قلبي . . أدخلت إصبعي في حلقي وبدأت أتقيأ . وخيم صمت ثقيل .

-من قتل خوخة ؟

قال لي أبي دون أن يتكلم

-سوف تنتهي هذه الأيام في زنزانة

هددني

فكرة قتل خوخة أتتني مرة واحدة في رأسي كانت أرقاً مرضياً فقط . . فلماذا يسكنني شعور بقتلها ؟ أنا العاطفي كيف لي أن أفكر في مثل هذه الجريمة ؟

أنـا قاضـم كتب الحـب الـذي يسـرع في قـراءة الفصـول الطويلـة ويتملّـى المقاطع الجميلة ويتحرق لاكتشاف نهايات القصص

أنا ، الذي أبكي مع أمي ومع . . الجنس والقبلات ، والدموع ، ولحظات الوداع . . حتى الأعراس التي كان فيها الأبطال والبطلات المخدوعات كيف لي أن أفكر في قتل خوخة ؟

إذا كـان صـحيحاً ، أنـي قتلـت أخـتي ، لـن يكـون هـذا إلا بسـبب أبـي ، الـذي لم يكـن يتوقـف عـن مضـايقتنا بحكاياتـه « الإنجيليـة ، القرآنيـة » عـن إبـراهيم عليـه السـلام ، عـن التضـحية القربـان لله . . أبـي الـذي يحـب النسـاء الجمـيلات اللاتـي يستسـلمن دون نـدم بصـورة حوريـة أو مايـا لم يكـن لـه أبـداً ثقـة فـيهن . . يقـول معلقـاً علـى روايـة آدم عليـه السـلام وحـواء : «المـرأة أفعـى بسـبعة رؤوس » أمـي المملـوءة بالحيـاة في فسـتانها الجميـل كانـت تخفـض بصـرها . نظـرة مكسـورة . خوخـة فيمـا يخصـها لا تبـدي أي اهتمـام للروايات الأخلاقية أو الدينية .

مثـل هـذا الحضـور لأبـي في البيـت كـان يـزعجني يسـبب لي ألمـاً في الـبطن ، ورغبـة في التقيـؤ . كـان يقضـي أيامـه جالسـاً علـى زربيـة مـن وبـر الجمـل تحـت ظـل الكرمـة الـتي تتسـلق الجـدار وتحجـب جـزءاً مـن فضـاء الحديقـة الصـغيرة ، كـان ظـل الكرمـة يحـدد لـه مـرور الوقـت . عينـاه كانتـا تراقبـان كـل مـا يتحـرك ، كـل مـا ينـبض ، يشـرب الشـاي بالنعنـاع في الصـباح والشـاي بالشـيبة بعـد الـزوال . في الليـل كـان يتنـاول شـرابه المفضـل بـالكحول المـأخوذ مـن جـذوع النخـل الكـبير وكـان يـدخن تبغـاً رائحته غريبة ومؤثرة . . فيما بعد أدركت أنه الحشيش أو ما يشبهه .

تحت ظل هذه الكرمة المتسلقة كانت سنوات أبي تدمي بهدوء ، زمانه كان يسيل قطرة قطرة وأنا أنظر إليه وهو يدخن تبغه كنت أشعر بغيرة عمياء من أجل تفاحة مرة عالقة بحلقي .

في الليل كنت أخرج لأبحث عن القمر المحدودب فوق قريتنا . . خوخة كانت تتمنى أن تلمسه بيدها . . في الحقيقة خوخة لم تكن أختي بالدم .

لم أكن أعرف شيئاً . . لا شيء ، لا شيء

أمي التي فاجأتها عارية للمرة الثانية في سريري ، مغطاة بالأغطية الملوءة ببقع المني تشم رائحة عطر غريبة في الهواء ، قالت لي دون أن ترفع نظرتها عن عضوي التناسلي .

« أبوك اشترى هذه الطفلة ليتزوج بها . . . فيما بعد »

كانت بها حمى ، أردت إلباسها رفضت أن تضع ثيابها ، حاولت أن تمدد وقتها في سريري ، في أغطيتي المتسخة . . لم تتوقف عن الحديث عن هارونها الصادق ، عن صوته الجميل الذي يغني أغاني الحب الجميلة على قبور المسلمين واليهود الصالحين . . أغاني عبد الوهاب ، عيسى الجرموني ، موريس المديوني شردت محدقة في عضوي التناسلي .

كانت أمي تقول « الحب للمرأة مثلما هي الشمس والهواء للأعشاب » بأمي عيني ومن بعيد كنت أراقب حركات أبي وهو بصدد قياس قد خوخة ، انتفاخ نهديها وعرض ردفيها . كان يعيد هذا العمل كل أول جمعة شهر قمري ، ليأخذ المقاييس المسجلة بدقة في دفتر صفحاته ضمن مربعات مختومة ومؤرخة بحبر بنفسجي ، كان يستعمل مقياساً مترياً معداً للبناء لونه أصفر ، وقبعة حمراء من الصوف يقيس بها نهديها وتكورهما . وفي المساء الذي سبق موت

خوخة ، سمعت صوت أبي المكسور في حالة هذيان قريب من الهلوسة كان يصرخ : « أصبحت التفاحتان ناضجتين »

كنت أعرف أنه كان يأمر أمي بأن تفحص كل صباح قبل صلاة الفجر سليب خوخة ، أملي أن تجد بين فخذيها المعتدلين أثراً لقطرة من دم حيضها

كان لخوخة تسعة أعوام وثمانية أشهر بل ثلاثة آلاف وخمسمئة وثمانية أيام .

تحت الأيام المطرة كان أبي يعيد قراءة السير للمرة السابعة ، معجباً بالعلاقة المثيرة للاهتمام بين محمد سلام الله عليه وعائشة رضي الله عنها زوجته الشابة والجميلة :

لقد تبوأت مكانة كبيرة في حريم الرسول صلى الله عليه وسلم . كان لمحمد صلى الله عليه وسلم اهتمام خاص بعائشة التي اتبعت متخفية في جلباب زوجها العاب الرماية والوقاية التي يحترفها الحبشيون أمام المسجد . . »

كان أبى يروي لنا السيرة ، وهو يشرب شرابه (اللاقمي) ، ويدخن تبغه برائحته المنعشة .

ويمطر روايته فوق رؤوسنا الصغيرة . كنت أتابع باهتمام حركات يديه الجميلتين ، مقلباً الأوراق الصفراء للمجلّد الكبير .

تحت ظل الكرمة ، كان يشرب . كان ينتظر بصبر سقوط قطرات الحيض الأولى بين فخذي خوخة الجميلين من أجل أن يفترسها .

حالته الصحية والنفسية تفاقمت خلال الأيام الأخيرة التي سبقت موت خوخة اللغز . كان حزيناً ، مضطرباً يشرب ويدخن بدون انقطاع . كانت أمي في خضوعها الأعمى والمطلق تهيئ له كل مساء طاولة الطعام : كأس الشراب ،

الخيار ، رؤوس البصل ، الزيتون الأخضر والبنفسجي ، بندق مشوي مملح ، عليه حشيشة ... كان يقرأ بصوت منخفض في الكتاب الأصفر راشفاً من كأسه . أمي ، منذ ليلتها الأولى في سريرها ، أعجبت بهذا الصوت الدافئ والمتلئ ، خاصة عندما يكون ثملاً .

كان لأبي إيمان خالص في الله ونبيه . لم يكن يتوقف عن أن يردد في أذن أمي أنه كان يسمع كل يوم قبل صلاة الفجر صوتاً إلهياً يهمس في أذنه بأنه من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

مأخوذاً بحب الله ونبيّه باع بقرته الوحيدة التي بقيت له ، ليذهب إلى فاس لشراء بعض المئات من المجلدات والمخطوطات لسيرة ابن هشام ، كتاب الإيضاح في علم النكاح لسيوطي . ديوان أبي نواس . صحيح مسلم . كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني . الطباقات لأبن سعد الروض العاطر لنفزاوي طوق الحمامة لأبن حزم ... كان فخوراً ، جليلاً وراضياً عن مكتبته الفريدة من نوعها في المنطقة ، المجلدات كانت منظمة جيداً في الأدراج الخشبية المبرنقة ، التي تشغل جداراً بكامله . أمي الأمية هي أيضا كانت مسكونة بسر عمق هذه الكتب .

السماء الثامنة

تحت ظل الكرمة المتسلقة كان الوقت ينزف ، وأبي يقرأ مرة بصوت خافت وأخرى بصوت مرتفع ، رواية عجيبة في مجلد كبير للسيرة حول زواج الرسول (ص) من زينب بنت جحش.

من مكاني كنت أتأمل الحروف التي تنهش معانيها بصمت صارخ .

كان يرتشف مشروبه بالسكر وهو يتلو عن ظهر قلب بعض الآيات القرآنية التي تلخص نهاية الرواية :

« . . فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وكان أمر الله مفعولا . » . الأحزاب37

أبي الذي كان يحب الرسول صلى الله عليه وسلم كان يروي لنا كل مساء حكاية التسع أو الإحدى عشرة ، أو الأربع عشرة زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم . كان يحدق في عيني لا يتوقف عن الشرود . كنت حزيناً لرؤيته على هذه الحال .

في آخر السهرة كنت أحمل بيدي أختي المرتجفة والمذعورة أضعها في سريرها وأغطيها .

وحيد . واحد . كنت أبتعد عن البيت لأبكي بصوت مرتفع ... لأبكي بحرية كنت أسامح أبي الذي كان يحلم بزفاف أكبر من زفاف زينب . هو الذي يحلم بأن يصبح رسولاً . قالت لي خوخة :

كنت أتصور أن ساعة حيضي قد حلت شعرت بانقباض حاد في « صدري »

البهجة

« حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء» حديث نبوي

في هذا الصباح . . لا حظت أثر الدموع على وجه أمي ، نظرة مكسورة زفرات كئيبة ، دون شك لقد اكتشفت الدم الملعون بين فخدي أختي المنحوتين بوضوح ، بسرعة لفت ردفيها المقولبتين بلفافات قطنية ، طالبة منها ألا تبوح بأي شيء لأبيها

كنت أستحضر أيامي ، بل سنواتي القطنية ، حيث كان ممنوعاً على عضوي التناسلي أن يخرج رأسه في الهواء . كانت أمي ترتعد لم أرها أبداً في حالة مثل هذه .

لقد كنت متقيناً من أن أبي هو وحده الذي سبب سيلان الدم بين فخدي خوخة :

حكاية الرسول ﷺ وزينب ، زوجته ، لا يهم ، طريقة تجويد الآيات القرآنية ، النيران المنشورة في الأعماق

...كل هذا كان يمارس ضغطاً كبيراً على أختي الصغيرة .

كنت أتساءل متأملاً حزن أمي العميق ، هل يوجد ، بين هذه الكتب والمخطوطات المرتبة جيداً كتاب الحكمة الذي له القدرة الخارقة ليحول في رمشة عين الصبية إلى امرأة بالغة صالحة للزواج ؟ كنت متيقناً من أن أبي لم يقم

بسفره حتى فاس إلا لشراء مثل هذا الكتاب ، باسطاً طريقة تعجل سيلان دم البلوغ ، زد على ذلك ، بعد رجوعه من فاس مدينة المشرق ، حيث أقام فيها الثلاثين يوماً طيلة أيام شهر رمضان المبارك ، وبقي مغلقاً على نفسه مدة سبعة وعشرين يوماً ليدرس ويطبق ما جاء في هذه الكتب والمخطوطات ، صباح يومه الثامن والعشرين ، مبتسماً ، غادر خلوته ، متماً صلاة فجره ، الوجه المضيء ، العينان ضاحكتان وقبل طلوع الشمس ذ بح تيساً أسود ، وجعل خوخة تأكل الخصيتين المشويتين . الطائشة ، الحمقاء الصغيرة ، ظنت أنهما قطعة كبد .

لقد تلذذت خوخة بمذاق الخصيتين الملحتين المشويتين على نار الجمر .

كان أبي مسروراً ، وهو يراها تمضغ ، بشراهة ، الخصيتين المشويتين جيداً ، في فرحة ونشوة ، أخذها بين ذراعيه ، ثم وضعها فوق ركبتيه ، وهو يداعب وركيها وظهرها ، في هذه اللحظة ، أردتُ أن أطلق صرخة غضب ممزقة ، لكن حلقي ، كالعادة ، خانني ، وجدته متشنجاً ، الأحبال الصوتية مقطعة .

خارت قواي في صمت مقبرة

بصمت ، بهدوء ، كان يشرب ويحكي لنا بعض تفاصيل سفره إلى فاس ، مدينة المولى إدريس : ضريح المولى إدريس ، وسيدي يعقوب ، أثمان طرابيش الفاسيين ، صفاء ماء سيدي حرازم ، بركة مسجد القرويين ، الموسيقى الأندلسية ليهود المدينة ، حرف نسج الحرير والصوف ، روائح الفطائر ، حرفة صناعة المشط من قرن الثور . . .

كانت أمي تتابع المداعبات على ظهر ووركي خوخة ، مستلقية على ركبتي أبيها ، وتأكل آخر قطعة من الخصيتين ، وتقضم البندق الحلبي المجلوب من فاس ، وتشع بجمالها المعهود .

في هذه السهرة ، استهلك أبي كمية كبيرة من مشروبه ، فقد التحكم في يده ، التي دسها تحت فستان خوخة ، ليمر بها من بعد على النهدين الصغيرين ، ثم بين الفخذين ، ليفحص ممر الحيض .

خوخة ، جامدة ، باردة ، تقضم البندق المملح والمشوي جيدا . هذه الليلة ، اجتاحني حس الجريمة ، كنت افكر في أن أغتال أحدهم ، أبي أو خوخة ؟

لا أعرف لماذا استثنيت أمي ، التي تنام مرة أخرى عارية في أغطيتي المتسخة ، حاكية لي للمرة الثالثة ، حكايتها المفضلة عن اليهودي الذي لا يبيع إلا نوعاً واحداً من الأثواب . نوعاً من الجوخ اليوناني الذي تشتريه نساء تلمسان ، ندرومة قسنطينة لتجذب بها اللذة الجنسية ، من دون شك ، سمعتها من فم هارونها الصادق .

القبر هو الذي ينتصر في الأخير دائماً .

أغلقت على نفسي في غرفتي ، عاكفاً على قراءة عميقة لسلسلة من الروايات البوليسية ، ومن بين مئات الجرائم المفصلة ، كنت أبحث عن الأبسط والمحكمة منها ، لكي أقتل دون أن أترك أي أثر .

ماهو الفرق بين الطبنجة والمسدس ؟ كونت مجموعة كبيرة من كل الأسلحة النارية ، ألصقتها في جدار غرفتي ، كنت أقضي ساعات وساعات أتأمل الصور الملونة لهذه الآلات الصغيرة التي تسبب الموت . (لم يمكن إلا كابوساً) .

كنت كئيباً وقلقاً ، وأنا أرى أبي يرتاد غرفة خوخة ، حيث يبقى حتى صلاة الفجر ، كنت أتخيل أمي تبكي دون دموع ، لقد هزلت كثيراً ، فقدت أناقة أنوثتها ، وكانت تحدث نفسها : « هي التي فيما مضى كانت تدير كل الرؤوس ، لن تستدير إليها الآن رأس واحدة عندما تمر . » .

ولم تتردد في الخروج وحدها ، ليلاً ، لتذهب إلى المقبرة الموجودة عند مخرج المدينة . تتأمل ملياً قبر أبي

-الآخر

بعد لحظات من التأمل تمددت فوق القبر فجأة ، أخذت في رعدة تعرت وبدأت تحرك جسدها وهي تحكه على القبر ، كانت تتنهد ، كانت في أوج التهيج!

أدركت أن أبي عندما يذهب إلى خوخة كانت أمي تأخذ طريق المقبرة بعد كل خروج ليلي كانت أمي تقول : " الأحياء الحقيقيون هم الموتى . " لم يكن أبي يعير أي اهتمام لكلامها .

كل مساء لم تكن أمي تنسى أن تغطس رجلي زوجها في إناء ماء فاتر ومملح ، وتمسدها وتداعبها ثم تمسحها بفوطة حمام مزركشة .

على غرار كل نساء القرية كانت تعتقد بأن الماء الفاتر المملح المسكوب على رجلي الزوج ، يثير فيه شهية وقوة الجماع وإن كانت أمي تعمل ما بوسعها لإثارة زوجها بحكها ظهره وطليه بالصابون ، وتحلق شاربه وتقلم أظافر يديه ورجليه ... لكنه ، ومنذ عودته من مدينة فاس ، مسكوناً بهذه الكتب الشيطانية : بقي قطعة من جليد!

على قبر أبي الآخر ، كانت أمي تعمل على تأخير جنونها ، لقد وجدت في المقبرة مدينة الموتى ما لم تجده في«مدينة الأحياء» .

سكر الاحتضار

في هـذه الليلـة قـررت أن أتبـع خطـى أمـي إلى المقـبرة . جمـيلات هـنَّ الأمهات الليليات .

كنت أختبئ بين الأعشـاب التي تنمو ، على قبر مجهول ومهجـور . مـن هنا ، الرؤيـة تشـمل المشـهد كلـه . وصـلت مـزودة بدلو مملـوء بمـاء بـارد ، تتمـتم بصـلوات(نبلـل الأحيـاء بالمـاء الفـاتر والموتى بالمـاء البـارد!) سـقت بعض بـراعم الياسمين بجانب شـواهد القبـور . لحظة صمت ، صـلاة أو تأمـل ، بعض الـدموع السـاخنة ذرفـت . . . لكـن حيوانـاً-أفعـى ، عضـاية أو قنفـذ – قطـع صـمت الأمكنـة وانـدس بـين الأعشـاب اليابسـة وسـبب لي قشـعريرة في الظهـر ورغبـة ملحاحـة في التبول .

كانت أمي صامتة هادئة ومعبرة كإلهة إغريقية ، إلهة مقدسة .

كان الليل أسود ، كنت أميزها بوضوح متبعاً خيالها جالسـة على القبر . كنت أراها شابة في جسد مملوء بالحياة ، بالحرارة والأسـرار . كانت تنتظر من سمائها الرحيمة أن تبعث لها بريح جميلة .

لبست أمي ثيابها ، خبأت عيني بيدي ، ثم فتحت أصـابعي ببطء . لاحظت أنها لازالت تحتفظ بيقين أنوثتها ، أدركت أن الجو لطيف . لم أجرؤ على أن أرمـي

لها بمعطفي لتستتر به . لأول مرة لاحظت أن أمي تملك ساقين جميلتين ، منحوتتين بشكل هائل . . تسلبان العقل . قلت في نفسي : هذا الأب «المجمَّد» ، الفخور بكتبه وصوته الذي لا يتوقف عن تجويد كلام الله ، القرآن وإنشاد القصائد الغزلية . ألا يكون شاذاً ؟

أحسست أني في عمق رغوة . على قبر كانت أمي تجد في ذاتها كل كنوز الأنوثة . كان السواد يجعل المكان أكثر اتساعاً .

عرفت أن أمي ، ومنذ اليوم الذي رتب فيه أبي كتبه ومخطوطاته في الغرفة الأبوية كرهت سريرها الأعمى البارد بجانب رجل بلا رغبة ينام كشيء دون رأس . كنت أفكر في خوخة جالسة على ركبتي أبي الذي كان رأسه مليئاً بـ"الأشياء" . الصور الساخطة التي تملأ ما بين الصفحات الصفراء للكتب والمحفوظات .

على القبر كان الجنون والسفاهة قد تعديا المقاييس . هاتان العينان الساخرتان لقطة ضارية ، متلونة بين الأزرق والأخضر والأسود ، تلمعان في هذا الليل الخريفي . شممت رائحة البارود .

مثل سمكة ، أمي عارية تماماً ، كانت متمددة على القبر؛ إيقاع؛ صمت انفجاري تناهيد عميقة ، كانت أمي تهز جسدها كما لو أنها على ظهر فرس هائج .

الفروسية جيدة وموصى بها لتطور الحياة الجنسية عند النساء . كل النساء يحلمن بقضاء حياتهن كلها على ظهر الخيل .

استيقظت . في وقت الحاضر كانت أمي تطير في سمائها الثامنة . كانت جميلة جداً في هوسها الأزرق . فجأة ، كآبة اجتاحت قلبي ، شعرت ببرودة مرعبة

سكنت رأسي وركبتي ، قررت أن أغادر مخبئي وألتحق بالبيت . كان المطر رقيقاً وعذباً يسقط على المقبرة . . وأمي هناك على ظهر فرسها .

قبل أن أنسحب ، ألقيت بنظرة أخيرة على أمي . كانت في حالة ارتعاد ، ملتهبة بالبهجة : لم تكن ممددة على قبر أبي– الآخر ، كانت برفقة خيال ثان ؟

رجل أم دب ؟

كنت واحداً .

كانت مائية عند بداية الأفق ، عند نهاية الشهوة أو الشمس ،

اثنين ...اثنين... كانت اثنين

الجرح الحي

كنت أشعر أمام أبي دائماً ، بإحساس مرعب .

خوخة كانت ساذجة ، وحيدة وجميلة تضحك عالياً ، تخرج لي اللسان ، كانت تشك بأني أراها مكشوفة في غابة عريها ، أمام مرآة تؤطر السرير الأبوي للاستحسان خلال ممارسة الجنس . سكنتني صورة أمي وهي على ظهر فرسها ، كانت تضايقني ، كانت لها عينان بنيتان ، بل عنبريتان ، عندما تصبحان زاهيتين زاهيتين ... لاحظت أن لون شعرها كان أشقر ، لون مثير ، مهيج ، اللون الذي يثير اللذة الشهوانية .

الصباغة الشقراء شيطانية وعاصية ، عديدون هم الكهنة الذين بعثوا رسائل للفنانين الذين لهم شعر أشقر .

أبي كعادته ، بإيقاعه كان يحتسي شرابه بجرعات صغيرة ويفتش حدائق الكلمات في أحد المخطوطات ليرى هل لها بعض المعاني المخبأة ، فجأة جاءت فكرة في ذهني : إحراق مكتبة أبي ، أكيد كل اللعنات تسقط من هذه الكتب الملفوظة المذهبة والمعتنى بها جيداً . كان لأمي سمات مختلفة ، كانت تكلمني بنبرة قاسية ، جافة وعنيفة : « البارحة ، نسيت أن تطفئ النور بقيت غرفتك مضاءة الليل كله حتى الفجر . »

سكت ثم حركت رأسي لأمتثل لملاحظتها . أردت أ ن أقول لها " أنا أيضاً كنت في المقبرة . " لم أتجرأ على رفع البصر إليها لعلّي أفاجئها مرة أخرى ، على ظهر فرسها فخرجت .

أبي ، يجلس أمام مكتبته ، فخره الكبير ، ينسخ بالحبر البنفسجي شعر جدي المكتوب لحورية ، مايا أو ماريا ، كان يرسم حروفه بهزة وجلجلة مثل فعل جنسي دون أن يمتلك دموعه وتنهداته . لاحظت للمرة الأولى عشقه للألوان ، الأصفر الزعفراني البنفسجي ، والأسود بلون غراب ، يترقب سقوط الليل ليلتحق بخوخة في غرفتها . يشرب بإفراط لقميه ولا يتكلم إلاّ عن الرسول سلام الله عليه وعلى زوجته زينب . كان مسكوناً بقصة زواجهما ، كان أبي يعشق الرسول صلى الله علي وسلم ويطالب بمكانته بين أحفاده .

كانت لي رغبة عنيفة لتذوق شراب أبي ، كانت عينه كل الوقت ملتصقة بغرفة خوخة ووجهه يرسل ضوءاً فسفورياً ، كنت أتجنب نظرته الجارحة . أمي ، جمال ملاك ، تستسلم لا تشتكي- الطريدة في حاجة إلى صيادها المحنك- تأخذ مكانها في رجليه ماسكة بين بيديها إناء بلون أزرق فاتح مملوء بماء فاتر مملح . عيناها تقولان لي بأنها تريد البوح بسر ، أحسست بزلزال تحت قدميها ، أطلقت خوخة بسمة طفولية ومغوية ، وبنظرة قلقة ومكسورة ، كنت أرى تفاصيل جسدها ، في هذا المساء كانت كبيرة ، ممتلئة ، صدرها نافر إلى الأمام ، كانت تحمل صدرية بتشبيك من حرير تحت مئزر من القطن الوردي . كانت عينا أبي تلمعان في رأسه المدور بل تبرقان مثل عيني ثعلب ، أمي قلقة ، صامتة ومرتبكة ، كانت تمسد وتداعب رجلي زوجها ، مغطستين في الماء الفاتر والمملح . أخذت خوخة مكانها على ركبتي أبي الذي أخذها بلطف بين ذراعيه مقدما لها كأساً من الشاي المنعنع وحفنة من البندق الناضج والمملح

بيضة الديك

سهرة أخرى وأيضاً حكاية أخرى : كان أبي يقرأ لنا قصة عائشة زوجة الرسول ﷺ ، في مجلد ضخم للسيرة ، كانت عيناه مغرورقتين بالدموع وكان يتبع الصراط المستقيم . . لم يكن أبداً يتأخر ولا يؤجل ولا ينسى صلواته اليومية ورغم إيمانه العميق كانت به حرقة مزمنة تجاه الموت .

طلب من خوخة أن تقرب المصباح الزيتي ، وضع نظارتيه المعلقتين دوماً في رقبته بسلسلة فضية وأخذ يقرأ باكياً . أمي ، هي أيضاً لم تستطع تمالك دموعها ، تفرست فيه بحزن .

كان أبي يقرأ بعربية غنائية مقفاة وغير مفهومة ، سكت برهة ثم علق طاوياً كتابه : « الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لن أترك بعدي أي سبب لفتنة الرجل غير النساء . » .

كانت أمي تهتم كثيرا لجلسات القراءة . . هذه المرة انتفضت متمتمة :

«عندما يكون ذكر الرجل منتصباً فإنه يفقد ثلث عقله وثلث دينه . » .

صدمت بالقول الوقح الصادر عن أمي التي كانت تتابع بدقة يد زوجها التي تداعب ظهر ونهدي خوخة الصغيرين . في هذا المساء اليد الشيطانية تجرأت ، على الذهاب بعيداً ، لتعلب بشفتي الفرج الصغير ولم تتردد في إيلاج

الإصبع الأوسط في الغار الصغير لفحص سيلان الدم . لمسات البدر غيرت صوت أبي أصبح حلواً وعسلياً .

وليلة أخرى .

لم أسمع الضجيج (مثل كل ليلة) ، الصادر عن تغيير مكان السرير الأبوي . هذا الهدوء يعني غياب أبي .

المؤمن الصالح ، الذي يمشي على الصراط المستقيم ، ويحب الله إلى حد الجنون ... قرأ في أحد مجلداته الملفوف في جلد حقيقي : « احتراماً للكعبة ، يستحسن على كل مؤمن أن يجتنب الكعبة عند الجماع . » .

كان أبي يقول "إذا كان المؤمن يجامع زوجته ورأسه باتجاه القبلة في لحظة اللذة ، فإنه ليس هو الذي يمتلك المرأة ، بل الشيطان . "

وأنا أنصت لأقواله كنت أقول في نفسي "كما في كتب الرومي ، هناك شياطين في كتب أبي المقدسة . "

كان أبي مؤمناً صالحاً حتى في مضجعه . قبل أن يجامع أمي كنت أسمعه يكبِّر ويهلِّل بصوت مرتفع

« في البداية الله هو

الله الأكبر .

لا إله إلا الله . »

ثم يتمتم بدعاء :

« بسم الله ، العلي القدير ، يا إله ، اجعلها ذرية صالحة ، إن شئت أن تخرجها من صلبي . » ثم تخرج أنفاس من أعماقه . يهتز السرير ، يقفز ، وصوته التقي يصعد ببطء :

« الحمد لله الذي جعل الإنسان قطيرة ماء ... »

كان مؤمناً صالحاً لم ينس أبداً واجباته الدينية حتى في المضجع . أمي فيما يخصها ، لم تكن تحب أن تسمع ذكر الله أثناء الجماع . كانت تحب الإحساس بالحرارة الإنسانية وتشم رائحة زوجها الحيوانية . كانت شهوانية ، متوحشة ونجلاء .

كان أبي في غرفة خوخة يتخلى عن واجباته الدينية . في هذه الغرفة الصغيرة ، كانت الكعبة غائبة تماماً ، ممحية من رأس المؤمن الصالح . رغم الانتفاخ حول ردفي خوخة ، أبي كان ذا ذكاء وحذاقة بخصوص دم النساء ، دم البلوغ .

مسكونة بغيرة عنيفة ، لاحظت أن لأختي أفكارا يمكن أن تكون ميالة للهموم والظلامية تجاه أبيها . كانت راضية بقدرها . أليست شريكته ؟

فجأة ، نزل الليل من السماء ، لم تتأخر أمي في جلب إنائها ذي اللون الأزرق الفاتح المملوء بالماء الفاتر ، المملّح وهذه المرة قبل أن يضع زوجها رجليه في الإناء ، قال لها بنبرة جافة : « في البداية ، ابدئي برجلي خوخة » .

صمتت ، في هذه اللحظة ، استيقظ الشيطان في داخلي . . لم تتأخر خوخة في مد رجليها الصغيرتين المثيرتين وغطستهما في الماء وهي ترسل نظرة حنان إلى أبي الذي كان يقرأ في صحيح البخاري . كانت عيناه تتابعان المشهد من صفحات الكتاب الذي كان يخيفني بحجمه ، نوعية الأوراق والغلاف الأصفر .

تحت نظرة والدي المشوشة غير المفهومة ، لم تعرف أمي أن ترفض أو تتردد في تمسيد رجلي خوخة ... لقد كانت خاضعة وهامدة .

رغبت في التقيؤ وإفراغ كل ما في بطني على وجه أبي الذي كان أنفه دائماً مدفوناً بين صفحات الكتاب الكبير

لم أكن أكره أبي ، بل أحب أمي المطيعة والمصْغِرَةً برحمة هذا المؤمن الصالح .

خوخة كانت فرحة بسرها المخبأ بين فخذيها الشمعاوين كانت تقضم في هدوء البندق المالح المشوي جيداً .

قال أبي دون أن يرفع عينيه من الكتاب « احرصي على أسنانك »

كانت أمي شاردة الذهن وتفكر في خروجها الليلة للفروسية . . الفارس القوي . . للدب و . . للشبح ، لهارونها الصادق .

الصبغة

عندما حان موعد غسيل الأرجل ، هذا المساء ، كانت أمي خاضعة تماماً كئيبة ومسلوية . . متأرجحة بين رجلي زوجها ورجلي خوخة . هذه المرة ما يحدث كان مزعجاً بشكل كبير ، ثقيلاً وغريبا : بمجرد أن حضر إناء الماء الفاتر المالح ، انقطع أبي عن قراءته ، غطس إبهامه الأيمن في الماء ، كما لو أنه يجرب الحرارة ، كانت ، أول مرة أرى فيها بياضاً لماعاً ، كانت يدا ابي مثيرتين . طلب من خوخة أن تُمَدّ رجليها وبات يمسد لها أصابع رجليها والساقين أيضا . دون أن يتوقف عن التغني بأبيات شعر مكتوبة عن لسان جدي للجميلة حورية ، مايا أو ماريا ومخطوطة بالنسخ بعناية وصبر من قبل والدي ، حروف تشبه أشياء ، أشجاراً وملائكة حروفا كبيرة جدا ، متسعة بقدر معانيها . كانت أمي مستغربة تتابع يدي زوجها البيضاوين مداعباً رجلي خوخة المثيرتين .

خوخة ، العينان ضاحكتان ، الرجلان في الماء الفاتر المالح ، الأسنان بيض لامعة . كانت تقضم البندق الحلبي تتابع صوت أبيها الذي يقرأ الآن بصوت مرتفع . . الدرار الحسان والنعيم الجنان ، للأسيوطي وهو نص مكتوب بعربية مجردة ، شعرية وغير مفهومة « بمجرد أن وصل المؤمنون إلى أبواب الجنة استقبلتهم الحوريات في يد كل واحدة قرآن تقدمت كل حورية وقبلت مؤمنها واعترفت له بحبها ودخلت معه إلى بيته . . . » .

قطع أبي قراءته ، التي يظهر أنها أثارث بقوة انتباه أمي ، وخوخة أيضـا . .
سعل ثم رشف جرعة كبيرة من شرابه وتابع :

« . . . وفي البيت ، يوجد سبعون سريراً ، وفي كل سرير يوجد سبعون مرتبة ، وعلى كل مرتبة توجد حورية مرتدية سبعين فستاناً . . . »

وقطع أبي قراءته الورعة معلقاً :

« عند الله الأكبر والغفور ، يجد المؤمن نفسه غارقاً وسط أربعة آلاف وتسعمئة حورية . يا إلهي كم هي رحمتك واسعة وجناتك شاسعة! »

كان يرتشف شرابه ويمص بلذة كبيرة نواة حبة زيتون

« للمؤمن ، الحرارة ، القوة والحب ليحيا ويرضي أربعة آلاف وتسعمئة حورية . . إنه رضا الله »

فجأة اكفهر وجهه وانغلق وكأن شعوراً بالرعب قد انتابه .

من أي سماء سقطت ، خوخة هذه الخطيئة ؟

لا أكره أبي! ولا أمي أبداً ، خوخة أحبها أيضاً .

شيء ما بصمت كان يهدئ قلب أبي .

بعد أن جاء الحيض الأول لخوخة ، قالت أمي « لعنة سقطت على رؤوسنا »

القمر المريع

الله الذي يملك علم السماوات والأرض . هو وهو وحده يعرف حكاية خوخة . أما الناس فكل واحد يحكيها بطريقته .

حكاية على حكاية لا شيء على لا شيء ، لاشيء صحيح . يظهر للجميع أن كل شيء صحيح . عندما نستمع للنساء والرجال وهم يحكون قصة خوخة كنت أقول في نفسي « ليسوا بصدد حكاية قصتي ؟ »

كانت خوخة تعيش في الحكايات أكثر مما تعيش في الحياة . كانت تجوب ثلاثاً وخمسين حكاية بإمكانها أن تؤلف مجلداً كبيراً شبيهاً بتلك التي اشتراها والدي من فاس

خوخة ، دوجة أو حورية ، أو مايا أو بل ماريا ؟

الحكايات الأولى سمعناها تروى من قبل الحاجة حشاشة ، امرأة عجوز عمرها يتجاوز مائة سنة . هي التي وضعت أول حجر لهذه القرية ، وغرست أول تينة فيها ، أصيبت بالعمى نهاراً بينما ترى في الليل ، لم تكن تتكلم إلا البربرية ، كل ما كانت تحتفظ به بالعربية هو بعض الآيات القرآنية وأبيات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأخرى في الخمر ، وأسماء العاهرات وسباقات الجمال ، وبعض الأحاديث النبوية . كانت المرأة الوحيدة التي تتجرأ على تدخين الحشيش

في حضـرة الرجـال . لقـد سـخرت شـاباً جمـيلاً ليغسـل لهـا المنـاطق الحميمـة . يوضئها ، يلف لها المائة والثلاث سجائر التي تدخنها يومياً ، ويحضر لها الستة والأربعين (سبسياً) وهو يشبه الغليون ويصنع من القصب ويستعمل لاستهلاك الحشيش .

في هذا اليوم ، حررت خادمها . هذا الأخير كان هامداً حزيناً . منذ خمس عشرة سنة لم يشعر أبداً بمثل هذا الإحساس : أن يكون بعيداً عن الحاجّة حشاشة التي يحبها إلى حد الرعدة ، والتي احتفظ معها بحياة حساسة وشهوانية . كان رماداً معتقداً أن محبوبته دفنته في هوة النسيان . وأنا الذي أخذت مكانه هذا اليوم ، قمت بلف سيجارة لها ، ، أخذت نفساً كبيراً وبدأت تحكي لي :

« الصلاة على محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء عليهم السلام . »

تمتمت : « صلى الله عليه وسلم .

وعلى صحبه» أضافت .

« الحـاج رحيم (اسـم أبـي) كـان يملـك ثـروة كـبيرة : تجـارة ، أراضٍ ، محاصيل ، أغنام أبقار ، نساء ، ماعز ، دجاج ، خادمات ، خيل ، ملح ، شموع ، عسل ، حرير ، بارود ، سيوف ، بندقية عثمانية ... ثروته كانت منتشرة في بلاد الشرق البعيدة ، هناك حيث تشرق شمس الله كل يوم : مكة ، حضرموت ، عدن ، دمشق ، حيفا ، بغداد ، حلب ، طرابلس المشرف ، البصرة طشقند ... لكن الله الذي وهبه كل هذه الممتلكات ، بالمقابل ، حرمه من الذرية . لم تكن له نفس! »

طلبت مني الحاجّة حشاشة سبسياً ، كنت قد حضرته لها . أخذت نفساً عميقاً وهي مادة يدها إلى عضوي التناسلي . أحسست بأني تجمدت ، يدها الملساء على ذكري المنتصب جعلت جسمي كله يرتعد :

«... في مدينة مقدسة بالمشرق طلب الحاج إبراهيم من أحد التجار أن يرد له دينه ، هذا الأخير كان قد افلس جراء الجفاف والأوبئة التي اجتاحت الحقول والأنعام ، لم يجد ما يرد به الدين ، أهدى له ابنته الصغيرة على ظهر آخر ناقة بيضاء ، الوحيدة التي نجت من الكارثة ... »

كان أبي يذهب كثيراً إلى مكة ليتنافس في سباق الجمال .

الناقة البيضاء كانت مطية الرسول ﷺ المفضلة .

قالت : «صلِّ على محمد ، خاتم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

صلى الله عليه وسلم- .

و على آله وصحبه » تمتمت .

طلبت مني الحاجة حشاشة أن أصب لها كأساً من الشاي . كنت أستحسن أكثر فأكثر يدها الساخنة ، والملساء التي تلعب بعضوي التناسلي ، الذي بدأ يرفع الرأس شيئاً فشيئاً . شعرت بجفاف حلقي وبلذة كبيرة وعميقة ... كانت الحاجة حشاشة تدخن تبغاً ، راشفة شايها وباسطة خيط حكايتها .

« هكذا الحاج رحيم الذي كان كريماً وعظيماً ، مسح كل ديون الرجل ، وبمجرد أن حلَّ الفجر وسمع رغاء الناقة ، اتجه الحاج إبراهيم برفقة صبية نحو المغرب ، هناك حيث تغرب شمس الله . لم يكن له الوقت حتى ليسأل عن اسم الصبية الجميلة . يقال إنها كانت تسمى نهى ، تنحدر من عائلة يهودية ثرية أفلست جراء نكبة طبيعية . وقد عاملها كل سكان القرية كابنة لهم ... »

دون أن تطلب مني ، لففت للحاجة حشاشة سيجارة أخيرة .

كان الليل قد حلَّ . عادت إلى الحاجّة حشاشة عيناها بصرها . سحبت يدها التي لم تتوقف عن اللعب بعضوي التناسلي ، طالبة مني أن أوضئها ، وأن أغسل لها الأجزاء التناسلية . بمجرد أن بللت جسدها بالماء الفاتر ، انغمست في آهات اللذة الطويلة . كانت خوخة قد انصرفت .

الماء المعيار

مسكونة باختفاء خوخة ، النظرة هادئة ومكسورة ، العينان مغرورقتان بالدمع ، براقتان أكثر من ذي قبل ، كانت أمي تحكي لي قصة اللعنة . كنت أشعر بأن الكلمات في فمها كانت صغيرة ودالة .

« في الحقيقة ، كانت تسمى نانديي أنا التي جعلتها تنتحل اسم خوخة . وقد كان مناسباً لها . هو (أمي كانت تسمي أبي بهذا الضمير ، لم تتجرأ أبدا على أن تنطق اسمه الحقيقي ، إنه محرم) كان يحج مرة في كل سنتين . كل مرة كان يقضي أربعة أشهر في التعبد ، بجانب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم! هو شريف سليل لالة فاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ . هو كان يقول بأنه من لالة فاطمة ، جدته لالة فاطمة سليلة التفاحة الإلهية المحولة في صلب محمد ﷺ والتي وضعت من قبله في خديجة زوجته الأولى ، هكذا هي الزهراء المرأة الرائعة الجمال من جوهر خالص . قاده قدره إلى امرأة كان قد التقاها حول الكعبة وقت الطواف .

تنتمي إلى قبيلة كانت تستقر في الصحراء العربية " الربع الخالي" حملت منه ، منه هو ... آه النساء ، إنهن أخوات الشيطان!» .

كانت كلماتها متعثرة ، صوتها مضطرب وهستيري .

«... وعندما قرر أن يرجع طالب رجال القبيلة بنصيب الجنين الذي ينام في بطن الأم من الميراث. وقد اختطف إلى حين وقت الولادة، التي جرت على مرأى كل أعضاء القبيلة: الشيخ، الفرسان، النساء، الأطفال، الرعاة، البيض والسود... وبحضور شيوخ القبائل المجاورة كان هو حاضراً ليقطع الحبل السري. منذ مجيئها إلى الدنيا حملها بين يديه. نظر إليها وأحس بسرعة بأنه سكن بهذه الطفلة ولم يرد أن تفارق يديه. عندما بلغت الصبية يومها الأربعين حينئذ قرر الرجوع، كان له حنين كبير لمكتبته وخيله. فيما يخص الأم، تزوجت براع إبل كانت تحبه منذ الطفولة.»

أمي، عينها يقظة، كانت تنظر باهتمام وشراهة إلى عضوي التناسلي، وتتصوره ملفوفاً في قطنه الوردي ومنديله الحريري الفارسي.

« الأسوأ في هذه الحكاية هو ما يأتي: يوم رجوعه مصحوباً بالصبية الصغيرة. كل أعضاء القبيلة وحتى أنعامهم، اجتمعوا في ملعب رملي شاسع وحشي، حيث الريح الخريفية تمكث طويلاً وتسبب زوابع دوارية على هيئة دوامة ضخمة، وحيث كان يشنق المحكوم عليهم بالإعدام. أخيراً، كان سعيداً لتمكنه من الرجوع إلى أهله لكن قبل أن يعطي إشارة انطلاق القافلة، تقدم نحوه ملتح محاط بأربعة رجال أقوياء وفي رمشة عين ربطوه وعروه، بعض النساء غطين وجوههن، وبحركة سريعة خاطفة انتزع الملتحي خصيتيه...

والنساء أخذن يزغردن. آه النساء أخوات الشيطان. قال ﷺ « المرأة تأتي على شكل شيطان. عندما يرى أحدكم امرأة، وتعجبه فليسرع ليجامع زوجته، معها سيكون كما لو أنه مع أية امرأة أخرى» صحيح مسلم.

بمجرد أن تم الاجتثاث ، قزم كانت لحيته تصل إلى ركبتيه ، ذراعه الأيمن مبتور ، كان ممتطيا عضباء قرعاء أعطى إشارة الانطلاق ملوحاً بيده اليسرى بعلم أسود ونافخاً في قرن ثور كبير «ا ذهب إلى حيث شئت ، لن تستطيع خيانة دمنا ، بنتنا . »

وحده الراعي الذي قد تزوج بالأم كان يبكي هل كانت ابنته ؟ . . الله الذي يملك علم السماوات والأرض هو وحده يعلم الحقيقة .

كنت أتأمل رقبة والدتي ، تفاحة آدم الصغيرة كانت ترتجف ، نظرتها عنيفة أكثر من فضولية ، كانت مثلما كانت في طفولتي مركزة على عضوي التناسلي .

البرقش

هل الأموات يثيرون الغيرة! الأموات هم أيضا ، يبذرون الغيرة! خوخة ، بحكاياتها ، كانت تثيرني . كانت تسكنني غيرة معذبة ومحرقة .

بسرعة ، أحسست بأني قاحل ، خاملٌ بلا حياة .

« كنت أسير بالنية مستقيماً على خطى الرسول ﷺ . » هكذا ، بدأت حكاية أختي مرويةً من قبل والدي . « خوخة كانت تسمى تينهينان . حصلت كهدية من طرف تاجر القهوة والبهار الأسود والأبيض ، جامع الحصائر المنسوجة من القصب . لقد أهديت إلي ملفوفة مثل حلوى في ورق رقيق جداً مذهب ، على صينية من نحاس مكسوٌ بالذهب ، خلال سهرة لا تنسى حيث أبرمنا عقداً لتسوق كبير لبن موخا في عدن ، وآخر للبهار في هراري . »

في هذا المساء ، صديقي ظافر الحصائر كان سكراناً تماماً ومتغطرساً تجاه أربعة آلاف وتسعمئة امرأة كُنَّ حريمه ، هذا العدد نفسه من الحوريات الذي يتطلع إليه المسلمون المخلصون بأن يجدونه في حريمهم بالجنة . كان عالماً كبيراً في الفقه .

« بمجرد أن رأيت الصبية الصغيرة تخرج من غلافها ، قررت ... على طريق الله ورسوله ، سأمشي وبإيمان ... »

جلب مجلداً كبيراً ملفوفاً جيداً ، وبدأ يقرأ لي ، صوته كان تقياً ، عذباً وساخناً :

إن زواج محمـد صـلى الله عليـه وسـلم بعائشـة ، لم يكـن لا قلـيلاً ولا مرفوضاً : « كان يثبِّت ويَضْمَنُ العلاقات الحميمة بين عائلتين . . . »

ثم قرأ لي الحكاية التالية التي كنت قد سمعتها ثلاث مرات :

« أبو بكر قد بعث عائشة تحمل للرسول ﷺ تمراً وتقول لـه : «أبي يطلب منك أن ترى إذا كانت ناضجة بالنسبة إليك . » ردُّ الرسول ﷺ كان مختصراً وسريعاً : " قبلنا ، قبلنا ، قبلنا"

أمـي ، حركاتهـا موزونـة ، عيناهـا ليسـت إلا لمراقبـة عضـوي التناسـلي ومشاهدة زوجها . كان مثيراً بقوة .

كنت أتابع وجه أمي الحزين ، هي التي حاولت إخفاء حيض خوخة ، في لفافات القطن المجهزة منذ أربع سنوات ، أبي كانت له حاسة شم كلب صيد .

هذه الليلة ، أبي لم يكن قد أنهى حكاية خوخة لي ، أو بالأحرى حكايته ، كانت عيناه مغرورقتين بالدموع أو بالأحرى بشيء كان يشبه الدموع حيث كان هناك حب سري يرافق كل الذكريات منبثقاً من الأعماق بعد زبدة الزمن .

صلاة الرغبة

في هيجانها وغيرتها المتوقدة ، كانت أمي تظهر لي جميلة جدا ، شابة وكبيرة جداً ، سماء ثامنة! حدسي ، الشمام الجيد للرائحة التراجدية للبلوغ ، بعد أن أتم صلاة المغرب ، عجل خطاه نحو خوخة . كان في حالة ورع حقيقية ، منوراً وظافراً ، على حافة الجنون وكما في الطواف ، استدار حول أختي مقبلاً جسدها الصغير .

صرخ « حورية ، مايا أو ماريا » منشداً بصوت مرتفع شعر الغزل الجميل المكتوب لزوجة أبيه ، امرأة جميلة الكلام والموسيقى والريح ، تلك التي طردت جدتي من فراشها المنسوج بريش ثلاثة عشر نوع من الطيور ، الكناري ، العندليب ، السنونو ، الهدهد ، البرقش ، الترنجي ، القرقب .

صمت مملوء بالأصوات .

هذه الليلة ليس له أي شيء خاص ، أكيد ، الجو ألطف مما هو معتاد ، برودة خريفية ، كان أبي جالساً مشغول البال ومضطرباً ، أمام طاولة قصيرة ومدورة ، يشرب جرعة فوق جرعة .

منذ سبع وثلاثين سنة ، لم يكن يشرب إلا (اللاجمي) أو ماء زمزم المقدس ، الذي ينبع من عين اكتشفتها هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، وزوجة

إبراهيم عليه السلام، يجلب من مكة كل موسم حج، محفوظاً في أربع عشرة جرة من الفخّار، يجدد كل سنتين.

ينتشر في غرفة أختي جو جامد، رطب ومميت.

أبي كان يحمل في عينيه يقيناً مليئاً بالكآبة واللوم، وهذا منذ اليوم الأول لحيض خوخة. كان يجر جسده وراءه مثل حمل ميت، جثة مسكونة بسر عميق وبعيد.

كان الرعد بعيداً، والسماء مثل أبي اجتاحها الغيم على شكل أشجار عارية، حشرات عارية كبيرة مهددة. الحاج رحيم، الذي يعشق تمديد السهرات الصيفية، الخريفية والشتوية الباردة قد خاف من الظلمة التي سقطت بسرعة على رؤوسنا، هو الذي كان يقرأ الأشياء المرعبة في مجلداته المجلدة والمذهبة المجلوبة من فاس والحجاز، لم يكن في الأخير إلا طفلاً يبحث عن ذراعين رؤوفين

كنت أتصور خوخة، في حدود الخطيئة، تحت عيني أبي الحائرتين أو المضطربتين بنهد منتصب جيداً وردفين منحوتين بعناية..

في هذه السهرة، كنت أشغل مكان أبي، هذا الرجل الذي لا يشبهني البتة، لم أكن أعرف من أين لي به، أو بالأحرى من أين انحدرت. كنت أراقب شيئاً لا يشبه شيئاً إطلاقاً

أشرب جرعات صغيرة من كأسه الذي تركه مليئاً حتى نصفه، وأنا نصف فارغ، لا أعرف ماذا أفعل- تينتنا المتسلقة بدأت، تتخلص من أوراقها قبل أوانها... كنت أول مرة أشعر فيها بليل خريفي له معنى سحري، عجائبي لا بل خرافي، فجأة رفعت الستائر كان أبي يبحث عن السماء التي فقدها في اللازوردي، في الفراغ- كان يبحث عنها في الغيوم على شكل معز وذئاب.

من الظل الليلي للكرمة حيث كنت جالساً ، لم أستطع أن أقرأ سمات وجهه الكئيبة المملوءة بالسحاب والأشباح . شعرت بأنه كان على حافة الهاوية : لقد دفن صوته في صمت . خوف بعيد استيقظ في داخلي ، كنت أرغب في رؤية أمي ، إنها دون شك تقوم بالفروسية على قبر أبي الأخر لم أكن أشعر بأني يتيم .

قصة أمي وهارون كانت تسكنني .

كان أبي ينظر إلي . خشيت أن أوجه إليه الكلام ، لقد عرف أني شغلت مكانه وكأسه المملوء حتى النصف ، كانت حنجرته مقبوضة ، أو بالأحرى مقطوعة ، لم يستطع أن يقول لي : « أني مازلت على قيد الحياة! » .

كانت خوخة صامتة ، غائبة ملأ الفراغ غرفتها ، والتيار الهوائي الذي يعبرها أعطاني إحساساً بأن المكان أصبح قفراً ، موحشاً ومسكوناً بالأرواح . ومن جذع الكرمة حيث كنت أستند ، ميزت بوضوح دموعاً فضية لشبح مكسور ، متعب .

عينا تينهينان الأميرة التارقية

كان الضباب يغطي السماء والوادي العاري الذي يلف القرية التي هجرها خياطنا هارون الصادق .

كان أبي بصدد تصفح أو قراءة سجله الذي كان يحتفظ به بعناية وأمانة صديقه هارون الصادق . كان يفتش في ماضيه ، كان مقلوباً ، محطماً بخيانة جسده .

لقد فوت العيد الذي كان ينتظره منذ تسع سنوات .

منذ تسع سنوات نسي تماماً لعنته ، ويعيش في حرير الحلم وعسل الكذب ، كان يترقب سيلان الدم بين فخذي أميرته التارقية

تينهينان ، ومنذ تسع سنوات ، كان يحاول لَمَّ أجزاء روحه وجسده ، من أجل أن يجد شكل اللعبة .

كان يهيئ ليلة زفافه بالحكايات الساخنة المنثورة في كتبه المجلدة والمنظمة في الرفوف الخشبية الحمراء المشمعة ، شراب (اللاجمي) المأخوذ من قلب جذوع النخل الشائخ ، الموروث عن الأسلاف ، التعبد والسجود أمام شجرة النسب . . و . . و . . .

ثلاثة آلاف ومائة وخمسة أيام نزفت تحت ظل الكرمة المتسلقة ، بين قضم البندق المشوي وإناء الماء الفاتر المملح ، مرة أخرى؛ عندما تورد جسد خوخة ، هذه الأميرة التارقية ، بدوره أحس أبي بالصدأ في الدم والعظام . لقد خدعته حكايته . ووجهه النجمي والمنير سقط في رماد الظلمة الموحشة ، لقد كان مسكوناً بصورة القزم الأبتر ، الملتحي وبالحلاق ذي العينين المثلثتين بالعنف . هل حقيقة هو أم حكاية وهم مكتوبة في كتاب جيء به من فاس ، بلاد الشرق ؟

كنت في قمة السكر ، السفن غادرت مرافئها . كنت أتساءل :

« هل صحيح أن الطريدة بحاجة إلى قناصها ؟ » ساحباً ورائي جثتي ، تبعته إلى غرفة خوخة ، وقبل أن يتعدى عتبة أعماق أيامه وحكايته ، حدق فيَّ بعيني حيوان مطارد .

لقد أحدث الشرب في رأسي وقعاً عنيفاً . تمليت ملامحها عن قرب : لقد كانت ممددة في فراشها ، المنسوج من ريش مئات الطيور الاستوائية النادرة ، كانت كأنها في حكاية ، أو في قيلولة صيفية عميقة . في قبر صامت ، الوجه أزرق أو مظلل . عري ياسمينها المخبأ في مئزر حمّام وردي ، العينان هامدتان ، الرجلان الصغيرتان المشرقتان مازالتا في حذائهما بالكعبين المستويين .

كنت أفكر في دوجة التي أنستني الموت. لقد فقد أبي ريعان شبابه، ودخل في هنيان حمة وهستريا، كان يرى زوجة أبيه، امرأة خطيئة، في شعره أو فتنته حورية، مايا أو ماريا، أميرته خوخة. تينهينان، التارقية.

المفرج عنها والمشوشة. كان يصرخ: « لقد قتلتها، أحبها... أميرتي التارقية... ».

كانت مشرقة، غاطسة في إغواء الموت المطلق، بلد الحرير ونسيج الحرير.

قالت: « أريد أن أرى السماء مفتوحة، أبواب جنات عدن! »

كانت السماء فوقنا متقشرة.

أما أمي، بقلبها الكبير وطيبتها، فقد استمرت في خروجها الليلي، حيث تمارس، وإلى الأبد الفروسية على ظهر قبر.

! قبر والدي

في موتها خوخة، بالغة، مشيدة في شموس وأراض مدوخة ودون قمم، كانت توقظ في حرقة الغيرة:

« لقد كان لها كل السموات والحكايات. »

الصيف يوشك على نهايته، ربما الخريف، لا يهم ؟

المرأة خامدة، من دون أوجه وبلا عطر.

وأنا كنت عارياً، بلا حماية، لا شيء يكسوني، لا ظل لي، دون حكاية ودون أب.

بعون الله، الرحيم، الرؤوف، وبالصلاة على نبيّه، ختمت حكايتي قبل أن ينفتح الليل على نور النهار.

مدينة كان

آب 1997

الفهرس

كان عمري تسع سنوات . وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً
فجأة صمت الموسيقيون والمغنّون . كان عمي رابح يحملني
بين ذراعيه . أمي كانت تبكي . كانت تبكي منذ ثلاثة أيام وثلاث
ليال . في رمشة عين . وجدت نفسي بين يدي هارون صادق
خياط دوارنا . كالعادة . مقصاته تلمع بين أصابعه الشمعية
البيضاء . . بحركة خاطفة قص قطعة من عضوي التناسلي .
من برعمي . صرخت . . الموسيقي الذي كان ينفخ في قرن
الثور عاود عزفه لم أعد أسمع شيئاً تقريباً . زغاريد وبكاء .
بكاءات رفعن صراخهن الرامي في أغنية دينية . روتينية
حزينة وحادة . أمي فقدت وعيها . تسابقت النساء إليها يرشن
بماء الكولونيا رأسها وقفاها . ظننت أنها ماتت . فجأة فتحت
إحدى عينيها .

العين التي لا تنام أبداً!

إلى يوم «المقصات» . لقد كنت محفوفاً بعين أمي بشكل دائم
العين التي لا تنام أبداً .



13 RUE LES FRERES BOULAHDOUR 16000, ALGER, ALGERIE.
TEL/FAX : (++ 213) 21 74 45 44.

El djazair éditions